بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

كلية الدراسات العليا

كلية الدراسات العليا

ترجمة الصفحات من (١-٥٥) من كتاب:

"عمر البشير وأطول حرب في أفريقيا"

لمؤلفه: بول موركرافت

A translation of the pages from (1-55) of the book entitled:

"OMAR AL-BASHIR AND AFRICA'S LONGEST WAR"

BY: PAUL MOORCRAFT

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الترجمة العامة

إعداد الدارسة:

شمل قسم الله محمد تمساح

إشراف الدكتور:

محمد الأمين الشنقيطي

2018

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى

معلِّم البشرية ومنبع العلم، نبينا محمد (صلىَّ اللَّه عليه وسلم)

إلى

مثل الأبوَّة الأعلى والدي العزيز

إلى

المتربِّعة على عرش الأيام أمي الحبيبة

شكر وعرفان

اللهم لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السموات وملء الأرض على أن يسَرت لي إتمام هذا البحث. ثمَ أتوجه بالشكر إلى من رعاني لإكمال هذا البحث، أستاذي ومشرفي الدكتور/ **محمد الأمين الشنقيطي** الذي كان له الفضل – بعد الله تعالى – على البحث والباحث مذ كان الموضوع عنوانا وفكرة إلى أن صار رسالة وبحثا، فله مني كل الشكر والتقدير والعرفان.

والله من وراء القصد

مقدمة المترجم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، سبحانه لا إله إلا هو، نحمده ونشكره ونشهد أنّه لا إله إلا هو ونشهد أنّ سيدنا محمد صلىّ الله عليه وسلّم عبده ورسوله.

أمّا بعد:

عمر البشير وأطول حرب في أفريقيا هو واحد من كتب التاريخ العسكري التي اعتاد الكاتب على تأليفها بحكم عمله كخبير دولي يعمل كمراسل حربي ومنتج حر في مناطق الأزمات والحروبات في أفريقيا. طُبع الكتاب لأول مرة في بريطانيا العظمى في عام ٢٠١٥.

إنَ طبيعة الكتاب التاريخية جعلته خاليا من أكبر مشاكل الترجمة وهي مشكلة المصطلحات ماعدا بعض التعابير الإصطلاحية التي تتطلب قراءة ما بين السطور لإستخلاص المعنى المراد والتي اعتمدتُ في معالجتها على الحس الفردي وما ارتأت الباحثة أنّه الأنسب للسياق.

إنّ الكتاب عبارة عن سرد تاريخي للأحداث والتطورات التي مرّ بها السودان منذ عهد المملكة الكوشية حتى عصرنا هذا.

أسأل الله عزّ وجلّ أنّ ينفع الإسلام والمسلمين بهذه الترجمة.

الخلفية التاريخية

ما هو السودان؟

ترجع تسمية "السودان" إلى المصطلح العربي بلاد السودان مما يعني"بلاد السُّود"، أمّا تاريخيا فترجع التسمية إلى تلك المنطقة الشاسعة الممتدة جنوب الصحراء (الأفريقية) مباشرةً. وعليه يُعتبر السودان الحديث جزءا من إقليم شمال أفريقيا الناطق بالعربيِّة، وإذا فصَّلنا كلمة سُودان، فنجد أنَّ "سُود" أو "سد" تعني "حاجز بالعربية، وهذا الوصف يقع على أكبر منطقة مستنقعات في العالم والتي توجد بالجنوب.

يتباهى البلد بأطول نهر في العالم "نهر النيل" – والذي يتكون على الأقل من نهرين رئيسين هما؛ النيل الأزرق ذو اللون البني بسبب الطمي القادم من المرتفعات الأثيوبية والنيل الأبيض ذو اللون الشاحب. يلتقي هذان النهران في الخرطوم التي كانت عاصمة أكبر قطر في أفريقيا حتى " انفصال الجنوب".

لقد طغت التضاريس والمناخ على معظم الملامح التاريخية للبلاد، وعند إلقاء نظرةٍ خاطفةٍ على خريطة التضاريس، تتضح تلك الفوارق مباشرة بين شمالٍ جاف وجنوبٍ استوائي. فالسودان هو أرضُ الجبال والمستنقعات والأدغال بالإضافة إلى أنَّه أرض الصحارى التي لا ترحم والسافنا اللا متناهية.

لقد أحالت طبيعة التضاريس دون إمكانية التخييم العسكري في تلك المنطقة لآلاف السنين، حتى بالنسبة للجيوش الحديثة، حيث خبر البريطانيون في أواخر القرن التاسع عشر أنَّه لا يمكن

مقارعة الشلالات التي على النيل . وبدأ المستعمرون يتحدثون عن أميالٍ وأميالٍ من أفريقيا الدميمة.

قال مايكل آشر، المؤرِّخ والمستكشف، "أنَّ السودان كان البلد الأكثر جمالا في أفريقيا"، كما أشار إلى أنَّ إتساعه وتنوع ثقافاته يؤهله لأن يكون قارة مصغرة. لقد كان السودان الحديث أرضا تضم أكثر من ٦٠٠ مجموعة عرقية ولغات ولهجات متميزة هي موروثات ناتجة عن الهجرة والغزو. لقد أدت أنماط الحياة البدوية القائمة على رعي الماشية، وطرق الإبل التي تسلكها إلى البحر الأحمر وصولا للحج إلى نشوب نزاعات مع الرعاة المستوطنيين واشتباكات مرتبطة بتغير أنماط الطقس ليس أقلها ما يحدث في دارفور اليوم. كان السودان أيضا أرضاً للديانات المتنافسة، وعلى رأسها الإسلام في الشمال والمسيحية والأرواحية في الجنوب.

تعرضت البلاد منذ آلاف السنين لغزوات وحروبات، كانت نتاجا للعنصرية الثقافية السامة في كثير من الأحيان، والتي تعتمد بصورة أقل على اللون والعقيدة وبصورة أكبرعلى الهوية العرقية واللغة. إن التحليل الكافي للمجموعات القبلية العربية والتمييز العرقي الجنوبي يتطلب كتاباً كبيراً قائماً بذاته؛ لذلك سأشير إلى هذا التمييز المُعقَّد عندما يكون ذا صلةٍ مباشرة بأحداث سياسية عسكرية محددة.

بالنسبة لمعظم قصتي فسأركز فيها على قبائل الجعليين والشوايقة والدناقلة (أولاد البحر: أهالي النهر) التي تُشكِّل العرب النهرية السائدة، والتي تتمركز الآن في ولاية الخرطوم. هذه الجماعات مالت إلى السيطرة على السياسة والخدمة المدنية والجيش منذ الاستقلال.

إنَّ ما يُعرِّف "السودانيين" كان عادة سؤال تصعب الإجابة عليه، حيث تدِّعي نخبة الخرطوم التي تتحدث اللغة العربية النسب إلى العرب (وأحيانا النسب إلى النبي) والدين الإسلامي. هذا الشعور غير الآمن - في بعض الأحيان - بشأن الهوية الذاتية تعززه حقيقة أنَّ بقية العالم العربي لم يقر دائما بالنُّخب السودانية التي تدِّعي الأصالة العربية. لقد عزَّزت الغزوات من الشمال والإحتلالات التركية والمصرية والبريطانية في وقت لاحق هذا التناقض (الدونية / الأفضلية). كان يُنظر للشعوب الأفريقية العربية المختلطة في الغرب، في دارفور على أنَّهم ريفيون أجلاف بالرغم من أنَّهم تقريبا جميعهم مسلمون متشددون ولكنَهم ليسوا بعرب. إمتد هذا الشعور إلى العديد من الشعوب في الشرق خاصة، قبيلة البجا المنفلتة التي كانت مسلمة وليست بعربية.

لقد تم تطبيق العنصرية النخبوية في الجنوب، حيث أنَّ غالبية المجموعات القبلية لم تكن عربية وليست مسلمة. في العصر الحديث، لم يشعر كثير من السودانيين النُّخبة بالراحة التامة عندما تم تصنيفهم "كأفارقة سُود" ومن المؤكد أنَّهم لا يريدون أن يتم تعريفهم على أنَّهم سُود عندما يعملون أو يسافرون إلى أوروبا أو أمريكا الشمالية.

إنَّ ما يُشكِّل الهوية السودانية ظل سؤالاً بلا إجابة لفترة طويلة بعد الاستقلال. حاول انقلاب عام ١٩٨٩ إيجاد حل: حيث التزمت الحكومة بجعل جميع السودانيين مسلمين سلفيين من خلال تطبيق برنامج قوي للتعريب والأسلمة. وقد جُرِّب ذلك من قبل من خلال فرض قانون الشريعة الإسلامية في الجنوب، لكنه أثار مقاومة أكثر من أي وقت مضى بين الأغلبية غير المسلمة هناك. بعد عام ١٩٨٩، حاول الثوار الإسلاميين مرة أخرى، ولكنهم تسببوا في النهاية في انفصال الجنوب. ومن المفارقات إنَّ سلوك نُخبة الخرطوم العنصري المركزي الشمالي قد تم تكراره في العاصمة الجنوبية جوبا. حيث استولت هناك، نُخبة صغيرة على كل الثروة

والسلطة، وتجاهلت بشكل كبير بقيّة الأطراف، مما أدّى إلى تفاقم الانقسامات الإثنية القديمة والمريرة التي بدورها أدّت إلى تأجيج الحرب الأهلية في ديسمبر ٢٠١٣.

التاريخ المبكر:

وجد علماء الآثار أدِلَّة على وجود ثقافة العصر الحجري الحديث على طول نهر النيل منذ الألفية الثامنة قبل عصر المسيحية (قبل الميلاد). قامت منطقة مصر العليا والنوبة (التي تمركزت عند التقاء النيلين الأزرق والأبيض ونهر عطبرة) بوضع أنظمة مماثلة من حكم الفراعنة، حوالي ٣.٣٠٠ سنة قبل الميلاد. غزت المملكة الكُوشية النوبية مصر في عام ٨٠٠ قبل الميلاد. تمتد الإمبراطورية الكُوشية من جنوب كردفان إلى سيناء، حتى أوقف الآشوريون التوسع النوبي عندما غزوا مصر.

أصبحت مروي هي العاصمة النوبية. طُورت المملكة، فأصبحت من بين أول من قام بتطوير تكنولوجيا صهر الحديد. لقد نجت مملكة النوبة الكُوشية من توسع السُلطة الرومانية في المنطقة، ولكنها انهارت في نهاية المطاف في القرن الرابع الميلادي. . انقسمت الإمبراطورية إلى عدة دُويلات صغيرة قائمة حول النيل يديرها الأرستقراطيون المحاربون والتي تمثل الآن منطقة شمال السودان. سرعان ما تأثرت المحاكم الأميرية بتزايد قوة البيزنطيين، وبالتالي أصبحت تحت تأثير مذاهب مختلفة من المسيحية بعد عام ٥٥٠ للميلاد. في القرن السابع، تسابق الأتباع المسلحين للنبي محمد للإنضمام إلى واحد من أكثر التوسعات العسكرية تميزاً في التاريخ والتي غزت في نهاية المطاف الأراضي من جبال البرانس إلى حدود الصين. وحتما فقد أدَّت الفتوحات الإسلامية في مصر إلى نشر رسالة النبي جنوبا من خلال التمازج نتيجة الحرب والتجارة والتزاوج. تنحدر العرب النهرية الحالية من مزيج من الثقافات العربيِّة والنوبية. انتقل شعب الفونج خلال القرن السادس من منطقة النوبة الجنوبية وطردوا الممالك المسيحية الباقية ليؤسسوا ما يُعرف بسلطنة سنارأو السلطنة الزرقاء. مارست هذه السلطنة مزيج غير عادي من الإسلام جنبا إلى جنب مع المُعتقدات المسيحية والوثنية، على سبيل المثال، العديد من المهرجانات تنطوي على استهلاك قدر كبير من الكحول. على الرغم من الصراع مع الحبشة / أثيوبيا في الشرق والممالك الأفريقية في الجنوب، لمئات السنين الأولى- إلا أنَّ الجيوش السِناريِّة كانت فعَّالة جداً حيث اعتمدوا على الفدائيين من فِرق الخيَّالة الأقوياء التي شُكلت من النُبلاء، كما هو الحال في أوروبا، حيث كانوا مسلحين بالسيوف عريضة النصل، بدلا عن الرماح. كما كان يرتدي الفرسان الدروع أيضا، ولكن كانت غالبية الجيش قائمة على سلاح مشاةٍ يحمل سيوفاً. على نحوٍ غيرُ عادي، استطاعت سلطنة سِنَّار أنْ تحافظ على جيشاً دائماً، نتيجة لإقتصاد ناجح قائم على الذهب وقد كان أكبر جيش دائم في شمال شرق أفريقيا حتى أوائل القرن التاسع عشر. تم إنشاء الحصون والقلاع كحاميات دائمة. هذه القوة المركزية والمدرَّبة تدريباً جيداً تعني أنَّ الجيوش الخاصة المجاورة عادةً ما كانت تُهزم. تم التغلُّب على الإمبراطورية أخيراً من قِبل إمبراطورية أكبر وأفضل تنظيماً وتسليحاً – هي التُركُمانِيَّة العثمانية - عبر وكيلها المصري.

التُركِيَّة:

الإمبراطوية العثمانية - ومقرها اسطنبول - هي الحاكم الفعلي لمصر، لكن كان الخديوي (مندوب الملك) محمد علي في القاهرة ينظر إلى نفسه كحاكم مستقل له طموحاته الإمبريالية الخاصة. كان جنرالا في الجيش العثماني من أصل ألباني (يقول البعض أنَّه كُردي) قد أُرسل لإخراج قوات نابليون من مصر. أراد محمد علي إقامة إمبراطورية مصرية في ليبيا والسودان وأثيوبيا وشرق أفريقيا، وقد تبحَّرلاحقاً في اللغة العربية محاولا تغيير الحكم العثماني بالكامل. إنَّ الذهب والعبيد اللذان سيحصل عليهما سيغطيان نفقة فتوحات جيوشه، كما ستشغل جيشه عن الخوض في السياسة الداخلية. في عام ١٨٢١ قاد إسماعيل باشا كامل الابن الثالث للخديوي قوة متعددة الجنسيات قوامها ٤٠٠٠ من الألبان والأتراك والمغاربة والبدو المصريين، إضافة إلى وحدة مدفعية يقودها ضابط أمريكي وتوجَّه إلى شمال السودان.

اجتاحت هذه القوة تدريجيا معظم المستوطنات النيلية. يُشير السكان المحليين إلى الغزاة عموما بالأتراك. كانت التُركِيَّة هي اللُّغة الرسمِيَّة وحلَّت محلها العربية تدريجياً. يدعو السودانيون هذه الحقبة بالتُركِيَّة، رغم استخدام المؤرِّخون الأوربيون لتعبير الحكم التركي المصري غير الملائم. قاومت بعض القبائل الغازي، لكن رماحهم وسيوفهم – وشجاعتهم المعهودة – لم تكن تُضاهي الأسلحة النَّارية. جلبت الإدارة والري المركزيان التطور، بيد أنَّ التحضُّر يعني أيضا ضرائب باهظة. حاول القادمون الجدد تقديم إسلام أكثر نمطِيَّة للسودانيين، لكن ظلَّت النسخة الصوفية الروحانية مُهيمنة في المناطق الريفية. أدَّت الضرائب الباهظة جدا على العبيد والماشية والحبوب إضافة إلى ضريبة السكن إلى اندلاع ثورة بقيادة تحالُف الجعليين في شندي، فقد أحرقوا إسماعيل باشا وأتباعه الأساسيين في مساكنهم حتى الموت واندلعت الثورة.

تزعزع الحكم التركي وكاد أنْ ينهار لولا تفوق أسلحتهم. ساعدت عدم وحدة القبائل السودانية كما في السابق في نجاة الغازي وكانت قبيلة الشايقية احدى القبائل المقاومة الأولى الأكثر شراسة، فقد قاتلوا بشجاعة لدرجة أنَّ إسماعيل باشا دمج فرسانهم في قواته، وأرسلهم لاحقا لإحكام قبضته على البلاد – وقد ظلَّ تأثيرهم قويا حتى القرن العشرين. عند اندلاع ثورة الجعليين ظل فرسان الشايقية أوفياء لسيدهم الأجنبي الجديد وساعدوا في إخماد الثورة. يحركه غضب موت ابنه، أمر الخديوي في مصر جيوشه الغازية بتدمير أي مقاومة بقوة السلاح. كان الانتقام عظيما لدرجة أنَّه تطلَّب من السودانيين ستون سنة أخرى لينظموا ثورة ضد النظام العثماني.

عيَّن الغزاة عثمان بيه حاكما عاما جديدا في عام ١٨٢٥ وقد اتخذ الخرطوم عاصمة جديدة. وأصل الكلمة محل نزاع؛ فقد افترض المستكشفون البريطانيون الأوائل أنَّه من الكورتم "*qurtum*" - زهرة تُزرع في مصر بكثرة لزيتها- بينما يرجح المؤرِّخون العرب أنَّ الاسم قدم من شكل قطعة الأرض التي يلتقي فيها النيلان الأبيض والأزرق، إذ تشبه خرطوم الفيل. خرطوم "العربية" أكثر مناسبة لهذه الترجمة.

كان عثمان بيه من المماليك، وكان في منتصف العمر وأصله من القوقاز. يشبه المماليك الحرس الملكي العثماني الذي يتألف بصورة كبيرة من صبية مسيحيين من البُلقان، فأصلهم طبقة محاربة شُكِّلت من العبيد. كان انضباطهم مشابه للأوامر العسكرية المسيحية، إلا أنَّ ولاءهم كان للإسلام. إكتسب المماليك إحتراما لهزيمتهم المغول والصليبيين، رغم إضطرار الخديوي لإخماد ثورة المماليك في القاهرة. عاملا بأصله؛ بدأ عثمان بيه بتكوين جيش نظامي من العبيد الذين يقبض عليهم من جبال النوبة ومنطقة أعالي النيل الأزرق. يعتقد البعض أنَّ القرآن أقرّ العبودية، لكن لا يجوز استعباد المسلم، بينما يعتقد أئمة آخرون أنَّه حرام استعباد أي شخص. لا

يستطيع العبيد العاديين حمل السلاح، لكن الانضباط الصارم والتلقين الإسلامي للجيش الجديد الذي يُدعى "الجهادية" ألهمهم بالولاء. وقد قام بتدريبهم مدربون أوروبيون في أسوان، رغم أنَّ لغة التدريب كانت التركية - لغة القيادة، إلا أنَّ هذه القوة النظامية شكلت السلسلة الفقرية للقوة العسكرية لنظام الحكم التركي المصري.

لم تضاهِ الإدارة المدنية الكفاءة النسبية لجيشها. وفي نهاية الأمر تم إصلاح النظام الضريبي الجشع، لكن ظلت غارات وتجارة الرقيق على حالها. ما زال الخديوي في القاهرة متشبثا بحلم إقامة إمبراطورية طموحة، فقد حثَ إدارته في الخرطوم على استكشاف النيل الأبيض وإجتياز منطقة السدود المنيعة حتى تلك اللحظة سعيا وراء الثروات المُتخيَّلة في المناطق الأفريقية النائية. ما زالت القاهرة تعتقد أنَّ هناك وفرة في الذهب والعاج والعبيد. تزامن هذا التوسع مع الاهتمام الأوروبي المتزايد – خاصة في فرنسا وبريطانيا- باكتشاف منبع النيل الأبيض. شجعت القاهرة حكومة الخرطوم للتوغل جنوبا، بينما كانت التركية تتحكم فقط في المستوطنات التي على طول النهر وصولا إلى الخرطوم، وبعض المناطق التي تدعى "جزر السلطة" في مناطق مثل إقليم كردفان.

في أماكن أخرى، باستثناء الحملات التأديبية أو حملات مداهمة العبيد التي تقوم بها الجهادية من وقت لآخر، فعل أمراء الحرب والبدو المحليين ما يحلو لهم في المساحات الشاسعة غير الخاضعة للحكم. نفَّذ الغزاة أو المحاربين القبليين نزاعاتهم وحروباتهم المصغرة واستولوا على الماشية والنساء لا يزعجهم هؤلاء المركزيين ودعاة الحداثة في العاصمة البعيدة.

في الوقت الذي إعتلَّت فيه صحة محمد علي، الخديوي في القاهرة، بسبب الشيخوخة وجنون العظمة، تدهورت إمبراطوريته، خاصة في السودان حيث أصبح يعتمد بصورة أكبر على المعونات الأجنبية من المسيحيين الأوروبيين، وخاصة المصرفيين والتجار والجنود. عندما توفي في عام ١٨٤٩، كان خليفته، حفيده عباس الأول، حاكماغير فعَّال، فقد بذل قصارى جهده لاستبعاد النفوذ الغربي خلال فترة حكمه القصيرة. ومع ذلك، تلقى خليفته محمد سعيد باشا، تعليمه على أيدي المعلمين الفرنسيين ورحب بالاستثمار الغربي، لا سيما لبناء قناة السويس وتطوير التلغراف، وأصبح يعتمد أكثر فأكثر على القروض الأجنبية.

ومع ذلك، استمر في منصبه وجعل الإدارات الإقليمية الضعيفة تتبع للقاهرة مباشرة، مما زاد من إضعاف الحكومة المركزية الهشَّة في الأساس في الخرطوم. كما أمر الحاكم العام الضعيف في السودان بوقف تجارة الرقيق في عام ١٨٥٤متأثرا في ذلك بمستشاريه الغربيين. أغضب ذلك التجار السودانيين، الذين اعتبروا هذه الممارسة ليست فقط مصدرا رئيسيا للدخل، بل هو أمر جاء به القران الكريم. الأسوأ من ذلك تقريبا بالنسبة للسودانيين المتدينين هو تعيين مسيحي أمريكي كحاكم للخرطوم وسنار. في هذه الأثناء، أصبح المبشرون والتجار الغربيون أكثر نشاطًا، وكثيراً ما عملوا جنباً إلى جنب مع القوى العظمى في أوروبا حيث كانوا يتمتعون بسلطات واسعة النفوذ عبر قنصلياتهم المحلية. وطارد التجار الغربيون العاج في الجنوب، بينما سعى المبشرون إلى إنقاذ الأرواح ومنع العبودية. لقد شعرت النخبة المسلمة في الخرطوم بنفور متزايد من التدخلات الغربية والمصرية في نمط حياتها التقليدي.

حاول إسماعيل باشا في عام ١٨٦٣، الخديوي الجديد الأكثر نشاطا، إنعاش مصر والسودان من خلال مد خطوط السكك الحديدية والتلغراف والمدارس والخدمات البريدية، والإلغاء النهائي لتجارة الرقيق. وصلت خطوط السكة الحديدية من مصر إلى الخرطوم في عام ١٨٧٤ وإلى

سواكن على البحر الأحمر في عام١٨٧٥. حسَّنت البواخر النيلية التي تم بناؤها في الخرطوم المواصلات حتى النيل الأبيض. ورث إسماعيل باشا أحلام بناء إمبراطورية في أفريقيا الاستوائية. كان من الممكن نشر جيش حديث بواسطة القطارات والسفن الجديدة، كما تم إدخال المدفعية *"krupp"*، واستبدال حاملات القنابل القديمة ببنادق ريمنجتون من الولايات المتحدة الأمريكية. في نهاية الحرب الأهلية الأمريكية تم تعيين الجنود من كلا الجانبين كمستشارين عسكريين، أبرزهم الضابط الأمريكي، العميد تشارلز رودر ستون، الذي خدم كرئيس لهيئة الأركان المصرية، والذي سُجن دون محاكمة، وقضى فترة طويلة في الحبس الإنفرادي، بعد إتهامه بالخيانة بعد معركة خدعة الكرة في أكتوبر ١٨٦١، والذي أُطلق صراحه في نهاية المطاف ربما في واحدة من أكثر الحالات التقويمية للفقه العسكري الأمريكي، دون تهمة أو اعتذار. كان ستون ضحية برئية للصراع السياسي، وعليه وفي تعويض جزئي، أوصى له الجيش الأمريكي بالخدمة في مصر، حيث أوصى له، باقتدار للغاية، بمدة ثلاثة عشر عاما. ومن المفارقات، أنَّ الجنرال الذي أُتهم بالخيانة انتهى به الأمر باستخدام مهاراته الهندسية لبناء أسس وقاعدة تمثال الحرية. كما حاول الخديوي إنشاء قوة شرطية فعَّالة من الجنود غير النظاميين من قبيلة الشايقية. لم تفعل هذه القوة شيئاً يذكر لسحق تجارة الرقيق، حيث كان التجار يرشون الشرطة عادةً عندما يتم توقيفهم على القوارب في النيل الأبيض أو في أسواق العبيد الداخلية. شجع الفساد المحلي والتواطؤ في تجارة الرقيق الخديوي على تعيين مزيد من الضباط الأوروبيين لنزاهتم ولأنَّهم ملتزمون أخلاقيا تجاه إنهاء العبودية. كان السير صمويل بيكر واحدا من أبرزهؤلاء الجنود في هذه البعثة التبشيرية. كان بيكر مهووسا كغيره من المغامرين الإنجليز باكتشاف منبع النيل فوصل إلى بحيرة ألبرت (نيانزا) في عام ١٨٦٤. كان بيكر يسافر مع رفيقته فلورنس والتي يبدو أنَّها كانت تتفوق على زملائها الذكور. أغضب بيكر الملكة فكتوريا نفسها لكونه حميما مع امرأة أخرى ليست زوجته حسب ما يفرضه الوضع السيادي. كان ذلك صحيحا، ومع ذلك، حصل على لقب فارس ربما بسبب شعبية كتب أسفاره ولكنه لم يحظ بالقبول الكامل في الأوساط الراقية. إدَّعى بيكر أنَّه قد أنقذ هذه الشقراء الجميلة من البيع في سوق العبيد بالبلقان، وقال أنَّها كانت في طريقها إلى حريم السلطان. كانت هذه حبكة نموذجية للعديد من الروايات الإنجليزية الردئية. لكن عداء بيكر مدى الحياة لتجارة الرقيق قد يعني ضمناً أنَّ قصته عن فلورنس، التي تزوجت في نهاية المطاف، قد تكون بها بعض المصداقية.

قاد بيكر جيشا إلى الجنوب في عام ١٨٧٠ كباشا عثماني. كان يتحدث العربية بصورة معقولة كما كان قائدا نشطا تمكن من اختراق السدود وتوسيع إمبراطورية الخديوي الإستوائية. وفقا لأحد المؤرِّخين البارزين في السودان – أظهر بيكر حساسية كرجل أنجليزي وكمسيحي قائد للأتراك والمصريين والمسلمين السودانيين في مهمة لإنهاء تجارة الرقيق. خاض معارك مع القبائل المعادية – المتوحشة في بعض الأحيان- وتجادل بمرارة مع حلفائه. شعر بالإحباط فغادر السودان في عام ١٨٧٣ بلا رجعة. ومن المثير للإهتمام ربما بالنسبة للمؤرِّخين الغربيين، - ولكنها نقطة قاتلة للكثير من السودانيين-، أنَّه قد تم استبدال بيكر كحاكم للاستوائية بمغامر عسكري لامع آخر، والذي، بالإضافة إلى كونه ذلك، صادف أن يكون عنيدا ومسيحيا تقيا معتزا بنفسه هو: تشارلز جورج غوردون. كان معروفا باسم الجنرال"الصيني" غردون لأنَّه قام بقمع تمرد تايبنيغ في عام ١٨٦٤. أعاد غردون، بمجموعة صغيرة من الضباط الأوربيين، الروح المعنوية والانضباط للحاميات على طول أعالي النيل كما قام بإدخال البواخر المسلحة. بالنسبة للجنوب، فقد قام برفع العلم المصري في بحيرة ألبرت، في منطقة البحيرات

العظمى التي تفصل يوغندا والكونغو. كان الخديوي إسماعيل يخطط لحركة الكماشة الإمبريالية من خلال إرساله لجيش على طول البحر الأحمر إلى أثيوبيا. ضغطت لندن على الخديوي للتخلي عن آماله البائسة في الإمبراطورية الشمالية الشرقية الجديدة حيث فرضت القيود الدبلوماسية والهزائم الميدانية الانسحاب من أثيوبيا. نجحت قوات الخديوي في دارفور، حيث هُزم جيش الفور في يناير عام ١٨٧٤وتم إحتلال عاصمة الفاشر.

أصبحت القاهرة ضحية للتجاوزات الإمبريالية التي أحدثت انتكاسات عسكرية في أثيوبيا وجددت التمرد في دارفور وغيرها من الأماكن في السودان. وعد الجنرال غوردون الخديوي بأنَّه يستطيع استعادة النظام في كل السودان وكذلك قمع تجارة الرقيق. وافق الخديوي على خطط غوردون الطموحة في أوائل عام ١٨٧٧، حيث كان من المقرر إنهاء شراء وبيع جميع العبيد بحلول ١٨٨٠. لم يكن الخديوي ناشطاً أنسانياً، ولكنه كان حريصاً على استخدام الإلغاء كجزء من سياسة التودد لضمان الدعم السياسي والمالي الغربي لنظامه.

ربما أصبح غوردون رمزا للإمبراطورية البريطانية، بسبب طبيعة وفاته حيث أصبح تقريبا آخر راحل إنجليزي مكافئا حدث وفاته لمسرحية الآلام. ولد غردون في لندن عام ١٨٣٣ وهو ابن جنرال كبير، وكان خلافا لسلفه بيكر الذي كان زير نساء. كان غردون أعزبا حازما، محرجا جدا مع النساء وهو رجل يفضل تنظيم نوادي الصبية. لا يوجد دليل على مثليته الجنسية، لكن علماء النفس الحديثين قد يحددون أنَّه مصاب بمتلازمة أسبرجر بسبب روتينه الوسواسي (بدءا بحمام بارد كل يوم في نفس الوقت) إضافة إلى الجمود الاجتماعي ومهارات التواصل الشخصي الضعيفة. لقد كان جنديا شجاعا ولكنه (كالمريخ بدون الزهرة). بتكليف إلى المهندسيين الملكيين، خدم غردون في حرب القرم ثم قاد القوات الصينية بشراسة في ستينيات القرن التاسع عشر خلال التمردات المختلفة ضد الإمبراطور الصيني. وعليه، فقد جرت العادة على أنَّه مستكشف الأخطاء الإمبراطوري بتشجيع لندن. كان البلجيكيون يريدون منه تقسيم الكونغو ولكنه ذهب بدلا من ذلك، لفترة وجيزة إلى الهند. خدم في موريشيوس ثم ساعد حكومة كيب الاستعمارية في حل المشاكل في المحمية البريطانية في باسوتولاند. كان مهووسا دينينا وكان يعتنق جميع أنواع المعتقدات الإنجيلية الغريبة، أقلها ما يعتبر مسخا. ومع ذلك، كان مصمماً على الموت من أجل مبادئه، بغض النظر عن مدى الضرر الذي ألحقه بالحكومة البريطانية. كان محتفى به في إنجلترا بالرغم من كونه ممقوتا في الصين والسودان. في الواقع لا أحد يعرف كيفية موته، ولكن تم تصورها في لوحة شعبية لجورج وليام جوي في عام ١٨٨٥ عرفت ب "موقف الجنرال غردون الأخير". هذه اللوحة وقفت جنبا إلى جنب مع لوحة بقايا جيش السيدة اليزابيث بتلر التي صورت الدكتور ويليام برادون باعتباره الناجي الوحيد من مجزرة جيش الجنرال إلفينستون في أفغانستان. وكلاهما مصورفي المخيلة الشعبية والآن في حضيض الإمبريالية البريطانية. بالطبع، تم تصنيف لوحة جورج جوي من خلال رسم شارلتون هيستون لغردون النبيل في إنتاج هوليوود - الخرطوم عام ١٩٦٦. من الصعب في بعض الأحيان فصل الصور الشعبية من الأحداث التاريخية، لكن غوردون لم يكن يشبه تشارلز هيستون. كان غردون قصيرا – طوله تقريبا خمسه أقدام ذو بنية قوية. الأهم من ذلك، أنه عصى متعمدًا أوامر واضحة، مما أدّى إلى تقويض مهنة رئيس وزرائه، وتدمير حكومة لندن، ومن وجهة نظر سودانية، أنَّه تسبب في وفاة آلاف المدنيين في الخرطوم.

حقق الباشا الإنجليزي الكثير في وقت قصير، فقد كبح جماح تجارة الرقيق لكنه لم يقض عليها. كان يتحدث قليل من العربية، ويتجاهل هموم السودانيين، وخاصة النخبة في الخرطوم، وليس

فقط مصالحهم المالية في تجارة الرقيق. فضل الاعتماد على موظفيه الأوروبيين أومسؤوليه المصريين المحليين. كما أحب غردون الخديوي ووثق به أيضا، ولكن في عام ١٨٧٩ تم عزل إسماعيل باشا بسبب القلق البريطاني والفرنسي من إسراف الخديوي. لجأت لندن وباريس إلى السلطان في إسطنبول لإقالة الخديوي، الذي استولى على ما تبقى من ذهب في الخزانة وأبحر بعيدا إلى منفى مريح. أُرهق غوردون فاستقال على الفور وسعى لقضاء عطلة طويلة في أوروبا.

في القاهرة، ساعدت القوى العظمى على تنصيب توفيق، نجل إسماعيل، باعتباره الخديوي الجديد. كان توفيق مترددًا - فقد فضِّل الزراعة على السياسة. كما كان توفيق يفهم أنَّه سيكون رهينة للإمبرياليين الغربيين، خاصة بريطانيا وفرنسا، بالرغم من أنَّ البريطانيين كانوا في مقعد القيادة. تمرد جيش توفيق ضد السيطرة الغربية واستغاث الخديوي بحُماته البريطانيين الذين إحتلوا مصر في عام ١٨٨٢ لا سيما لتأمين قناة السويس. قصفت البحرية الملكية الإسكندرية في ما يسمى بالحرب الأنجلو مصرية عام ١٨٨٢، ثم استولى الجيش بقيادة لواء المرتفعات على القوات المصرية في تل الكبير، خارج القاهرة. لقي أكثر من ٢٠٠٠ جندي مصرى مصرعهم مقابل فقدان سبعة وخمسين من البريطانيين. تم تعيين السير إيفلين بارينج (رُفِّع إلى طبقة النبلاء وأصبح اللورد كرومر) في منصب المراقب العام في القاهرة،كجزء من "السيطرة" على الطراز الأوريليكي الذي أقامه البريطانيون والفرنسيون لإدارة الشؤون الماليّة للدولة المفلسة.

حكم مصر بصورة فعَّالة حتى عام ١٩٠٦، كنقصل عام بعد عام ١٨٨٢. (استمر االوجود العسكري البريطاني حتى عام ١٩٤٥). قرر بارينج الانسحاب كليا من السودان بعد عام ١٨٨٥ لأنَّ ميزانيته التقشفية لن تسمح بأي مغامرات عسكرية مكلفة. قام بارينج بإصلاح الجيش المصري تحت إمرة ضباط بريطانيين لجعله أداة حكومية أكثر موثوقية. وقد أدّت إصلاحاته مفعولها. أصبح الجيش الفعّال (نسبيا) الجديد رمزا وطنيا في دولة فاشلة، وقد لعب هذا دورا كبيرا في هيمنة الجيش، حتى بعد ثورات الربيع العربي المعاصرة.

كان بارينج مؤمنا حقيقيا بالمهمة الإمبريالية البريطانية، حيث كان يعتقد – وفقا لمؤرِّخ عربي- "أنَّ هذه الأجناس عاجزة تماما عن الحكم الذاتي، وأنَّهم لا يحتاجون أولا يريدون حقاً الحكم الذاتي وأنَّ كل ما كانوا يحتاجون إليه بالفعل هو سياسة عدوانية كاملة الأمر الذي جعل هذه الأجناس ساكنة وسمحت للنخبة بكسب المال والتعاون مع قوى الإحتلال فيما كان يطلق عليه اسم (المحمية السرية). استبعد بارينج الفرنسيين بينما كان يحسِّن إقتصاد مصر.

المهدية

تُركت الإدارة في الخرطوم خلال الاضطرابات في القاهرة في أيدي مسؤولين فاسدين وغير أكِفَّاء. بعد مرور ستون عاماً على ثورتهم الأخيرة ضد الدخلاء الأجانب، بدأت ثورة سودانية وطنية في جزيرة أبا التي يبلغ طولها تسعة أميال بمحاذاة النيل الأبيض، حوالي ١٥٥ ميل جنوب الخرطوم. انتقل الصوفي الزاهد محمد أحمد بن عبد الله إلى هناك بحثا عن التأمل الديني. وُلد محمد أحمد في دنقلا في عام ١٨٤٥، وتلقى تعليما دينيا ممتازا. وكغيره من العديد من السودانيين كان يكره فرض الأجانب عليه أشكالا أقل نقاءا من الإسلام. استندت أفكاره على الإصلاح الديني، لكنه استغل الكراهية القبلية للحكم السياسي الأجنبي. كان قد اختلف مع زعماء

دينيين آخرين مسبقا عارضوا وجهات نظره، ولكنه أعلن في يونيو من عام ١٨٨١ أنَّه رأى في منامه مجموعة الأنبياء السابقين بقيادة محمد نفسه – فيما يسميه العلماء الإسلاميون بالحضرة - وأخبروه بأنَّه "المهدي" (المختار أو الموجه). قام المهدي الجديد بتجميع حركة صغيرة، داعياً أتباعه بالأنصار (الذين يطلق عليهم اسم الدراويش من قبل الأوروبيين)، ثم بدأ في وضع نظام محلي على غرار الإدارة الأصلية للنبي محمد. أباد أنصاره المسلحين فرقة القوات المصرية التي أُرسلت لإعتقاله بشكل شبه كامل. انتشر التمرد، خاصة بعد أنْ هزم الأنصار محاولتين آخرتين من قبل الجهادية، بقيادة "الأتراك" المكروهين في سبتمبر ١٨٨١ ومايو ١٨٨٢. توافد الرعاة، ورجال الدين ورجال القبائل الساخطين إلى المهدي، الذي أعلن نهاية الدولة الإسلامية . لم تكن مثل هذه الحركات المسيانية جديدة في التاريخ الإسلامي، ولكنها جديدة في السودان وفي أماكن أخرى في الشرق الأوسط المحتل من قبل الغرب، ثم ظهر في القرن الواحد والعشرين مفهوم التجدد الديني من خلال الجهاد العسكري. في السودان، يعني ذلك أيضاً إمكانية طرد الأتراك فارضي الضريبة القمعية. أصبحت البراغماتية وصلاح الدين ترتبط بالميول المادية للمحاربيين القبليين. وهكذا أصبح المهدي نسخة فكتورية من أسامة بن لادن.

بعد حصار دام أربعة أشهر، أضطرت حامية الأبيض، العاصمة الجديدة لكردفان للاستسلام، موفرة مزيد من الأسلحة الحديثة للأنصار الذين قاتلوا بالرماح والسيوف وأظهروا شجاعة كبيرة. لقد أشعل انتصار المهدى تمردا وطنيا إمتد غربا وشمالا وإلى تلال البحر الأحمر. على مضض شديد، وعلى الرغم من مثله العليا بشأن الندرة المالية، وافق السير إيفلين بارينج ولندن على إرسال قوات مصرية بقيادة ويليام "بيلي" هيكس، وهو عقيد بريطاني متقاعد من الجيش الهندي. وقد دُشِّنت هذه الحملة في الأصل لرفع الحصار عن الأبيض. تشاجر هيكس باشا، الذي لم يكن متحمسا للعملية برمتها، مع ضباط مصريين وبينما كان جيشه يشق طريقه جنوبا، تحرش به الأنصار. دفن أنصار المهدية الآبار وعلى نحو أكثر فعالية استخدموا الدعاية لإقناع القوات المصرية المسلمة بأنَّ المهدي كان حقيقة يقود "جند الله". كانت قوة كردفان الإستطلاعية تتكون من حوالي ٨٠٠٠ من النظاميين المصريين و ١٠٠٠ من الفرسان و ١٠٠ من القوات القبلية غير النظامية وحوالي ٢٠٠٠ من أتباع المعسكر وحملوا الإمدادات لمدة خمسين يوما على متن قطار أمتعة ضخم يتألف من ٥٠٠٠ جمل. امتلك الجيش ايضا مدفعية تشمل بنادق كيرب *"kurrp"* الميدانية وستة مدافع رشاشة من ماركة نوردنفلت. تم تسجيل براءة اختراع نوردنفلت قبل بضع سنوات فقط، وعلى الرغم من موثوقيتها، سرعان ما أصبحت قديمة ودُمجت في الشركة التي أنتجت مسدسات ماكسيم *(Maxim)* الشهيرة، ولكنها من الناحية السودانية كانت سلاحا عظيما. في الوقت الذي كانت تقاوم فيه الحملة للوصول إلى كردفان، سقطت الأبيض. استمرت العملية لفك الحصار عن سلاطين بك حاكم دارفور- وهونمساوي المولد. كانت القوة، على حد تعبير ونستون تشرشل، "ربما كان أسوأ جيش أُرسل لحرب". وقد تم إطلاق سراح العديد من الجنود المعارضين من سجون القاهرة، الذين تمت إدانتهم لأنَّهم شاركوا في تمرد عام ١٨٨٢ ضد الخديوي. لم يكن هؤلاء الجنود غير راغبين، لكنهم كانوا غير مأجورين وغير مدربين وخارجين على النظام. وعلى حد تعبير تشرشل مرة أخرى "كان لجنودها قواسم مشتركة مع أعدائهم أكبر من التي لهم مع ضباطهم".

وعن طريق الخطأ أو من باب القصد قادهم أدلتهم إلى سهل حيث كانوا محاصرين في شيكان، جنوبي الأبيض في الثالث من نوفمبر للعام ١٨٨٣. فُوجئت قوات هيكس باشا وفرّ بعض المصريين وهربوا بينما تشكّلت أغلبية القوة في الميدان وقاتلت لمدة يومين، وهزمتهم قوات

المهدي في نهاية المطاف. هرب بعض الجنود المصريين لكن تم أخذ غالبية الناجين كسجناء. تم قتل الضباط على الفور، على الرغم من تمكن حفنة من الأوروبيين من شق طريقهم إلى الخرطوم. كان ذلك انتصارا عظيما للمهدي، الذي أصبح مجاهديه الآن يمتلكون مدفعية حديثة.

دخلت قوات المهدية إلى دارفور وأسرت سلاطين باشا في نهاية المطاف. كان رودولف كارل فون سلاطين واحدا من ألمع الحكام الأوروبيين في السودان الاستعماري. تحول والده من اليهودية إلى الكاثوليكية، كما اعتنق ابنه الكاثوليكي الإسلام عندما أصرت قواته الدارفورية على أنَّه بحاجة لأنْ يسلم ليقودهم، وقد ساعده تحويله هذا عندما أُلقي القبض عليه من قبل الأنصار. تم قتل معظم الكفار الذين تم القبض عليهم، لكنه أُحتجز في الأسر لمدة ١١ عاما - تحديدا في أمدرمان، حيث كان يُعامل في بعض الأحيان بصورة مقبولة (مُنح زوجات) وفي وقت آخر بمنتهى القسوة. كما أروه رأس غردون المقطوعة باعتباره درسا كائنا في حسن السير والسلوك. بعد هروب دراماتيكي ، سعى إلى طلب الغفران من البابا بسبب إرتداده المؤقت. كما كتب كتابه الرائع، النار والسيف في السودان، والذي استخدمه في وقت لاحق العديد من الإمبرياليين البريطانيين لمناقشة إعادة غزو البلاد.

يعرض سلاطين بك في كتابه صورة نادرة وعطوفة للمهدي:

المهدي

تميَّز المهدي ببشرة حنطية ووجه عربي رحيم لا تزال آثار الجدري تبدو عليه، وأنف معقوف وفم حسن، وشارب طفيف، وشعيرات قليلة على وجنتيه وأكثر كثافة على ذقنه. كان متوسط الطول، لاهو بالنحيل ولا بالممتلئ، يرتدي جبة مرقعة ببقع مربعة صغيرة بألوان مختلفة، وطاقية مكة أو قلنسوة ضيقة معصوبة بعمامة من القطن. عادة ما يتحدث بابتسامة مظهرا صفا من الأسنان البيضاء اللامعة.

إلى جانب تأثير كتاب سلاطين بك، تسببت خطابات أمين باشا أيضا في إحداث ضجة كبيرة في أوروبا. ولد إسحاق إدوارد شنيتزر في أسرة يهودية من الطبقة الوسطى في سيليزيا، وقد درس كطبيب، ولكنه شُطب في وقت لاحق في ألمانيا. وُظِّف من قبل الإمبراطورية، وأنتهى المطاف بالمغامر كجرّاح يعمل لدى غردون باشا. تحول إسحاق إلى المسيحية ثم، على الأرجح، إلى الإسلام، وكان دائما ما يُكنِّي نفسه بمحمد أمين. عيَّنه غردون مسؤولا على الإستوائية. بعد الثورة المهدية، تراجع أمين باشا جنوبا إلى بحيرة ألبرت مع بضعة آلاف من قواته. بعد سقوط الخرطوم، أصبح موت أمين باشا حدثًا إعلاميا مستمرا في أوروبا. قاد المستكشف الويلزي الشهير هنري مورتون ستانلي، حملة إغاثة عبر طريق شاق على طول نهر الكونغو وخسر ثلثي فريقه. في النهاية، إلتقى ستانلي مع أيمن باشا في أبريل ١٨٨٨ واقنعه بالخروج من أفريقيا عبر زنجبار. كانت الهزيمة المهينة لجنرال بريطاني (رقّى المصريون العقيد هيكس) ضربة سياسية للهيبة البريطانية في مصر والشرق الأوسط بأسره. كما تسببت الطبيعة الإسلامية للثورة في حدوث قلق في أماكن بعيدة مثل السطات البريطانية في الهند. ومع ذلك، فقد تم إتخاذ قرار ليس بتحديد الانتقام الإمبراطوري التقليدي، وإنما للأمر بانسحاب جميع القوات والإداريين والعائلات في السودان، وخاصة من الخرطوم. كان رئيس الوزراء في لندن، وليام إيوارت، مترددا مثل "بارينج" بشأن الانخراط في حروب مكلفة في السودان. إنَّ إرسال رجل واحد كان أمر رخيص نسبيا، وبالرغم من أنَّ اسم الجنرال غردون "كان يستحق جيشا بأكمله" كما يقال، إلا أنَّه قد تمت إعادة تعيينه حاكما عاما. وصل غردون الخرطوم في ١٨ فبراير من عام

١٨٨٤. كانت الأوامر المعطاه له هي أن يقوم بتنظيم وإجلاء المصريين والأوربيين من العاصمة. كان جلادستون معاديا للغاية للتدخل العسكري البريطاني مرة أخرى في السودان المزعج، لذلك فقد اعتبر الإحتلال العسكري لمصر في عام ١٨٨٢ من قبل العديد من خصومه السياسيين خيانة يشوبها النفاق لمبادئه بعدم التدخل الخارجي. أصبحت الأزمة الجديدة في السودان عام ١٨٨٤ الآن بمثابة اختبار لإخلاصه السياسي. قرّر غردون، متجاهلا أوامره، البقاء في الخرطوم حتى فُك حصاره من قبل القوات المرسلة من مصر. وعلّل ذلك بأنَّ كلا من السلام مع المهدي والإجلاء الكامل كانا مستحيلين. علاوة على ذلك، كان يخشى أن ينتشر الجهاد ليغمرمصر. ومع ذلك، أرسل بعض النساء والأطفال والجرحى في اتجاه مجرى النيل إلى مصر. ومن ثم شرع غردون في تحصين المدينة. وصل المهدي نفسه ونزل على ضفة النيل الغربية المقابلة للخرطوم، فيما أصبح يعرف باسم أمدرمان. أظهر غوردن شجاعة عظيمة وقيادة كاريزمية من خلال حشد المواطنين الخائفين في العاصمة، وحامية صغيرة مكونة من ٥٠٠٠ جندي. جادل مجلس شورى المهدي بأنَّ ذلك كان فخا وأنَّ القوة الكبيرة القادمة من مصر لتخليص الجنرال المشهور حتما قد تهزمهم. رفض المهدي الانسحاب إلى كردفان. جاء الهجوم المهدوي الأخير المكون من ٥٠٠٠٠ رجل في الساعات الأولى من ٢٦ يناير ١٨٨٥، عندما كانت مياه النيل في أدنى مستوياتها فكشف ذلك عن رؤوس الجسور الساحلية القائمة حول أضعف الدفاعات على ضفاف النهر. تم الاستيلاء على الحامية المصرية وقُتل غردون وتحولت المدينة إلى أنقاض. وصلت بواخر حملة الإغاثة المتقدمة بعد يومان من ذلك. "بعد فوات الأوان" صرخت العناوين الرئيسية في الصحف البريطانية كماغضب الرأي العام البريطاني لعدم الانتقام لموت قائدهم ولانعطاف حملة الانقاذ الكبيرة وعودتها للقاهرة. واجه قائد قوة الانقاذ، الجنرال السير، جارنيت ولسيلي، الكثير من النقد، لكنها كانت مهمة شاقة. كان ولسيلي قد عمل في بحيرات كندا، ورتب لفريق من الملاحين الكنديين لمساعدة أسطوله المكون من قوارب صغيرة للتغلب على العقبات الهائلة في شلالات النيل السته. وقد اعتبر هذا الطريق الأسرع عبر الأراضي المحتلة من قبل العدو. في نهاية الأمر، قسّم ولسيلي قوته المكوّنه من ٥٠٠٠ إلى قسمين يسلك أحدهما طريق الجمال البري (لإتخاذ طريق مختصر عبر حلقة النيل الكبرى) بينما بقي النصف الآخر على النهر. أعاقت المشاكل الداخلية تقدم ولسيلي لا سيما سحب وإعادة تجميع قواربه، بالإضافة إلى مضايقة قوات المهدية له، على الرغم من أنَّ القرار البطئ في لندن للسماح بإنقاذ غردون كان عاملا أيضا. تم قطع خط التلغراف، لكن غوردون قام بإرسال الرسل إلى الشمال. في ١٤ ديسمبر ١٨٨٤، كان آخرإدخال في يومياته "والتي،عندما طُبعت، خلقت هيجان في المملكة المتحدة) هو " الآن، إشارة إلى هذا، فإنّه إذا لم تأت حملة الإغاثة – طلبت أنا ما لايزيد عن ٢٠٠ رجل - في غضون عشرة أيام، سوف تسقط المدينة، وقد بذلت قصارى جهدي من أجل شرف بلادنا. وداعا".

دفعت وفاة غردون الصحافة الشعبية البريطانية إلى المبالغة ومالت وسائل الإعلام الغربية إلى القلق بشأن مخاوفها الإمبريالية مع قليل من الفهم لما يحدث في السودان للسودانيين. استمرت هذه العادة السيئة حتى يومنا هذا. يميل التكييف الثقافي الغربي إلى تصوير الأبطال المسيحيين الأوروبيين بأنَّهم يقاتلون إما مسلمين جاهلين متعطشين للدماء أو وثنيين سُود متوحشين في أقصى الجنوب. أنتجت ٣١٧ يوما من الحصار وابل صحفي لإرسال حملة انقاذ، ووصولها متأخرة جدا بيومين وأُضيف ذلك إلى الميلودراما الفكتورية. على الرغم من عدم وجود شاهد عيان، إلا أنَّ التبريرات المبتذلة عن وفاة غوردون خلقت فضيحة وطنية. ورد في نسخة هوليوود، بعد ثمانين عاما بعد ذلك، قطع رأس غردون على درج قصر الحاكم العام. (في

التسعينيات كان عليَّ أن أقوم بصعود هذه الدرجات نفسها لتأمين تمريرات صحفية نادرة من نظام إسلامي آخر، لم أكن متأكدا أبدا مما إذا كان هناك تحذيرا ضمنيا مقصوداً). ولأنَّ الأمر استغرق أكثر من عقد من الزمن لكشف الانتقام الإمبراطوري، فقد ظلت ملحمة غوردون جرحا مفتوحا في النفسية الوطنية البريطانية.

كانت الملكة فيكتوريا قد خاطبت البرلمان في ١٤ أغسطس ١٨٨٥، وعلى غير العادة بالنسبة لملكة، وبَّخت حكومتها. وعبّرت عن "حزنها العميق" الذي كان يتقاسمه جميع الناس وانتقدت حملة الإنقاذ التي وصلت "بعد فوات الأوان" ونعت "غوردون البطل". عادة ما يمتنع قلادستون عن الدفاع عن نفسه. لقد كتب رسالة خاصة في ذروة الأزمة قال فيها أنَّه قد اجتمع مع مطالب غوردون "الجنون والإجرام". في مراسلات خاصة أخرى، كتب قلادستون: "يجب أن أستمر في المعاناة بصمت". كان غردون بطلا، ومن المؤسف أنَّه استحق شرف الأبطال من خلال قلب كل فكرة ونية غادر بها إنجلترا رأسا على عقب والتي حصل من أجلها على موافقتنا. بعد مرور ما يقرب من ١٣٠ عاما، ما زالت الصحافة تتحدث عن قلادستون بسوء بينما ما زال تمجيد غردون ممتدا حتى يومنا وتقريبا بطريقة غير انتقادية تماما. كانت عيوبه الواضحة تجسد التراجيديا الإغريقية: الغطرسة تولد العداء. لقد خالف غردون رؤسائه عمدا، المدنيين والعسكريين على حد سواء لأنَّه عادة ما كان يزدريهم. وقد أخطأ بشكل خطير في قراءة الثورة المهدية والدعم القبلي والروحي لها وقبل كل شيء قدرتها العسكرية. لقد جلب الرائد الماكر للبعثة الإمبريالية المسيحية العار لحكومته وللإمبراطورية التي رغب في تعزيزها. أضافت مذكرات غردون بالإضافة للكتب الأكثر مبيعا من قبل الأوربيين وأبرزها سلاطين بك، لأسطورة غردون من خلال تشويه سمعة السودانيين وإضفاء صفة الشيطانية عليهم. تم تمويل بعض هذه الكتب سرا من قبل المخابرات العسكرية البريطانية في القاهرة.

لقد أمر المهدي صراحة بعدم قتل غوردون، ربما بسبب الخرافة التي تدعي أنَّ موته سيتبع فورا موت الجنرال البريطاني. بعد ستة أشهر توفي المهدي، ربما بسبب الجدري. دفعت الخلافة حتما للنزاعات الدينية والقبلية. كان للخليفة عبد الله أفضل الحجج من خلال لقبه ("مدير" الأمة، في المجتمع الإسلامي، الخليفة باللغة الإنجليزية). بنفس القدر من الأهمية، سيطرت كتيبة الراية السوداء التابعة له على العاصمة الجديدة أمدرمان. بعد أنْ تفوق على خصومه بشكل كبير، أراد الخليفة الآن تحقيق نبوءة مرشده بنشر الجهاد في جميع أنحاء العالم ، بدءا ببقية السودان.

حذت قبائل الفور والمساليت الأفريقية في دارفور حذو الحركات المسيانية. وأمر الخليفة رجال قبائل البقارة بقمع الثورة. قضى محمود أحمد، ابن أخ الخليفة خمس سنوات من أجل تهدئة منطقة دارفور، لكن لم يتم قمع النزعة الانفصالية بشكل كامل. على الحدود الأثيوبية، تم سحق الأنصار بشدة. بعد سحق التمرد في جيش المهدي، أعاد الخليفة تجميع قواته وأرسلهم إلى غارة نهب ناجحة على العاصمة الأثيوبية القديمة غوندور، سرعان ما تبعها الانتقام. كان الجيش الأثيوبي معززا بشكل كبير وبقيادة الإمبراطور جون الرابع نفسه. على حافة الهزيمة، انتصر جيش الأنصار بسبب رصاصة طائشة قتلت الإمبراطور وتراجعت قواته في حالة من الفوضى. توغل جنود المهدية أيضا جنوبا على طول نهر النيل متوغلين في الإستوائية. كان الجنوب والغرب والشرق إلى حد كبير، ولو مؤقتا، هادئا، لكن نجاح الجهاد العالمي كان يتوقف على غزو الشمال: مصر.

تحرك "جنود الله" عبر الحدود المصرية في صيف عام ١٨٨٩. في الثالث من اغسطس في قرية توشكي الصغيرة، حيث تم تدميرهم من قبل الجيش المصري بقيادة سرداره الجديد (القائد الاعلى) الجنرال السير فرانسيس قرينفل. على الرغم من أنَّ الضابط البريطاني قد اشترى أول مهمتين له ، إلا أنَّه أثبت جدارته ليكون جنديا متمرسا، وفي النهاية وصل إلى رتبة مشير، بحلول عام تقاعده في ١٩٠٨. حارب في تل الكبير والسودان وجدير بالذكرهزيمته لجيش المهدي في معركة سواكن في نوفمبر السابق.

قُتل قائد الأنصار عبد الرحمن النجومي، إلى جانب ١٢٠٠ من رجاله في معركة استمرت خمس ساعات. وقد تم أسر أكثر من ٤٠٠٠. أظهر النصر تحسُّن الجيش المصري الذي تم اصلاحه، والذي كان في هذه المعركة نواة من سرب فرسان العشرين البريطاني فقط. كان الأنصار قد ساروا على مسافة سبعين ميلا إلى مصر، متجنبين بعناية الحامية المصرية في وادي حلفا، لكنها لم تتلق أي دعم شعبي محلي، وهو أمر مستبعد على أي حال في مثل هذه المنطقة النائية. أنهت المعركة التهديد الإسلامي لمصر من الجنوب.

من الواضح أنَّ الخليفة في أمدرمان كان بحاجة إلى إعادة تقييم نبوءة المهدي بشأن الجهاد العالمي. تم عزل الشمال، الذي يسكنه ملايين المسلمين. وكان الجنوب البعيد أقل وعدا: حيث كانت التضاريس صعبة وقلة قليلة من المسلمين يعيشون هناك. واصلت قوات أيمن باشا المقاومة. في أوائل عام ١٨٩٠ إتحدت الممالك المحاربة مع الضباط البلجيكيين من دولة الكونغو الحرة قاهرة التقدم المهدي الجنوبي. زادت العداوات القبلية الداخلية بسبب الهزائم العسكرية وكذلك الجفاف والمجاعة والأوبئة. بدأ كثير من السودانيين التشكيك في بركات الله على المهدية. وأعقب ذلك الثورات القبلية. استغرق الخليفة سنوات لبسط هيمنته بعدها. حاول الخليفة تحويل الدولة الدينية المهدوية بشكل تدريجي إلى نظام ملكي إسلامي أكثر تقليدية، حيث تنتقل الخلافة إلى ابنه.

إعادة الفتح

بدا لبعض الوقت، أنَّ السودان كان بمنأى عن "التدافع الأوربي المحموم نحو أفريقيا". كان بارينج في القاهرة مصمماً على التركيز على الإصلاحات الداخلية، ولكنه في النهاية بدأ بتغيير رأيه.لم تكن لإعادة فتح السودان علاقة بالثأر لغوردن ولا بالحاجة إلى قهر دولة إسلامية، بل كان له علاقة بالسياسة الأوروبية. قرّر رئيس الوزراء البريطاني المحافظ، اللورد ساليسبري، وهو إمبريالي نشط، وقف أي قوة أوروبية أخرى من السيطرة على تدفق مياه النيل. كان البلجيكيون قد أبدوا اهتماما بالمنطقة، وكذلك الألمان، غير أنَّ الفرنسيين- كما هو الحال دائما-

كانوا يعتبرون التهديد الرئيس الذي تم تلخيصه لاحقا في أزمة فشودة في عام ١٨٨٩ والتي إمتصت تقريبا القوتين الإمبرياليتين في حربهما على السودان. أصبح البريطانيون في القاهرة منزعجون تمامًا من الحديث عن الزوارق الحربية الفرنسية على النيل وإقامة فرنسا (غير المتوقعة) للسدود.

كانت هناك مطالبات أكثر إلحاحًا للعودة البريطانية للسودان، تتمثل في الصعوبات العسكرية الدائمة بسبب الجيوش الإيطالية. في مارس ١٨٩٦، في أدوا، تلقى الإيطاليون هزيمة مذلة على أيدي الجيش الأثيوبي في عهد الإمبراطور منليك الثاني. طلبت الحكومة الإيطالية رسميا هجوما عسكريا بريطانيا في شمال السودان لمنع اعتداء القوات المهدية على الحامية الإيطالية الضعيفة في حدود كسلا. قرر اللورد ساليسبري أنَّ القيام بهجوم أولي داخل شمال السودان للاستيلاء على دنقلا كان الرد المناسب على الإيطاليين والتحذير الملائم للفرنسيين. توصل بارينج إلى إستنتاج مفاده أنَّه على بريطانيا إعادة إحتلال السودان لإبعاد الأوروبيين الآخرين، وأنَّه يمكن أن يحصل على الخزانة المصرية ليدفع. لقد كان ذلك حلا أنيقا. كانت هذه فرصة ثانية للمضي قُدما في السياسة الرخيصة. مع ذلك، أخفى بعض الضباط البريطانيون خططهم الإمبريالية الرسمية وشعورهم الشخصي بالحزن على موت غردون تحت ستار الشواغل الانسانية بسبب الفوضى المتصورة في السودان والحاجة إلى إنهاء تجارة الرقيق.

كان هذا الغزو منهجيا، حيث تم بناء خط سكة حديد جديد في شمال السودان، كان عرضه مختلفا عن النظام المصري، وهي إشارة واضحة إلى أنَّ البريطانيين كانوا يريدون أن يحكموا دولة جنوبية منفصلة، مستقلة عن القاهرة، على الرغم من أنَّ المجاملات الدبلوماسية لا تزال موجودة. تمت إعادة تجميع الزوارق الحربية المقسمة إلى أجزاء فوق الشلال الخامس، كما تم إعداد كميات هائلة من الإمدادات والذخيرة، وكل ذلك تحت مراقبة السردار الجديد، الجنرال السير هربرت هوراشيو كيتشنر. كان كتشنرآخر ضابط بريطاني على إتصال مع غوردون قبل سقوط الخرطوم، وعليه فقد كان ذلك بالنسبة لكتشنر أمرا شخصيا. على الرغم من مظهره الصارم والهادئ، كان كيتشنر في كثير من الأحيان قلقا جدا بشأن نجاح مهمته. لم يكن يريد أن يصبح ثالث جنرال بريطاني يواجه موتا يائسا على أيدي القوات المهدية، فقام بإخفاء مخاوفه الداخلية بالإهتمام الدقيق بالتفاصيل.

في يناير ١٨٩٧ بدأ الهجوم الكبير. كان الخليفة غير مستعدا - استغرق الأمر عدة أشهر ليسيطر جيشه الغربي على الموقف. أدّى الإقتتال الداخلي إلى تقويض المقاومة كما هو الحال دائما، وعليه فقد كان على القوات الغربية أن تخوض تحديا لإخماد تمرد الجعليين الذي تميز بكثرة إراقة الدماء. بعد معارك صغيرة، جرت المواجهة الرئيسية في سهل كرري شمال أمدرمان، حيث يعتقد المؤرخون الإسلاميون بأنَّ الكافر سيتكبد هزيمة نهائية قبل الاجتياح الإسلامي العظيم في جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط.

في صبيحة ٢ سبتمر من عام ١٨٩٨، ألقى اكثر من ٦٠٠٠٠ من الأنصار بأنفسهم في شجاعة هائلة أمام مواقع ثابته كانت محمية بمدافع المكسيم والمدفعية بالإضافة إلى عمليات القصف المؤيدة بالزوراق الحربية. كان كلما تراجعت قوات جند الله إلى الخلف تحرك الجيش المصري للأمام بفاعلية. في وقت متأخر من الصباح، قُتل أكثر من ١١٠٠٠ من القوات المهدية وأصيب ١٦٠٠٠ آخرون بجروح خطيرة، بينما تكبّد الجيش الغازي من البريطانيين والمصريين والألوية السودانية حوالي خمسون قتيلا. ضمت المعركة واحد من آخر قوات سلاح فرسان الإمبراطورية البريطانية، وهو الشاب وينستون تشرتشل، الذي كان قد أدخل نفسه في الحملة

كمراسل - على الرغم من كراهية كيتشنر المعلنة للصحفين – إلا أنَّه شارك في الحملة. كان كيتشنر خبيرا كبيرا في الشؤون اللوجستية، لكنه لم يكن إستراتيجيًا جيدًا: فقد تم سحق أحد كتائبه في هجوم الأنصار المفاجئ من قبل قوات الاحتياط المخفية. في نهاية المطاف تراجع الخليفة وحارسه الشخصي إلى الصحراء الغربية، ثم قاد كيتشنر ضباطه إلى أنقاض قصر الحاكم لإقامة حفل تأبين للجنرال غوردون.

وعلى عكس الجنرال اللورد سئ الحظ، راقلان في حرب القرم التي أُديرت بشكل سئ، وهو حدث إعلامي ساعد في إسقاط الحكومة البريطانية، فقد سيطرت شخصية كتشنر على هذه الحرب في السودان. تم قتل جميع شهود العيان والمصورين الأوربيين في سقوط الخرطوم. سيكون الأمر مختلفا هذه المره. على الرغم من أنَّه قام باستثناءات عرضية، إلا أنَّ كيتشنر كان يكره الصحافيين ، ويطلق عليهم كما هو مشهور اسم "السُكارى التافهون". كان تشرشل استثناءا، لأنَّه كان ضابطا مقاتلا شابا ذو علاقات جيدة وقد أُضطر لدفع نفقته الخاصة وقبول جميع الالتزامات. وكان الاستثناء الآخر هو جورج وارينغتون ستيفنز، مراسل صحيفة ديلي ميل، وهو رجل يبلغ من العمر ٢٨ عامًا وصف الجنرال بعبارات متوهجة قائلا: "إن انضباطه لا إنساني ولايرحم فهو يشبه الآلة أكثر من الرجل". تم إقناع كيتشنر بالسماح لوحدة صحفية صغيرة بسبب المشاركة المحلية واسعة النطاق في الحرب والتي كان عليها تقديم تقارير موجزة (٢٠٠ كلمة في اليوم) إلى الرقابة العسكرية قبل إرسالها بالتلغراف العسكري إلى القاهرة. قام الجيش بمراقبة الصحافة والتلاعب بها للحفاظ على دعم الحرب في السودان. كان العديد من الصحفيين وأبرزهم تشرشل – الذي ألّف كتابا هو الأكثر مبيعا يسمى "حرب النهر"- إلى إدارة وسائل الإعلام لأنَّهم كانوا عادة متطرفين مثل القادة العسكريين. ومع ذلك، أثار النقاد في لندن أصوات إحتجاج على النصر بعد هزيمة الدراويش، كما كان يطلق عليهم في بريطانيا. أشار المنشقون إلى أنَّ السودانيين قاتلوا جيشا حديثًا حيث كانوا يرتدون عادةً (دروع مصنوعة من حلقات معدنية صغيرة مرتبطة ببعضها البعض) ويستخدمون الأسلحة القديمة. كما اعترف ستيفنز في صحيفة ديلي ميل، "لم تكن معركة، ولكنها عملية إعدام". بالإضافة إلى ذلك، فقد شجب الليبراليون في الداخل ممارسة قتل الجرحى ، على الرغم من أنَّ الجيش أوضح، بشكل صحيح، أنَّ المهديين قاتلوا حتى عندما أصيبوا بجروح خطيرة. وقال العقيد تشارلز تاونسند، وهو شاهد عيان لمعركة أمدرمان النهائية كما تمت تسميتها: "إنَّ شجاعة هؤلاء الدراويش المساكين نصف الجوعى في جبابهم المرقعة قد يكون لها شرف ثيرموبيلاي". أشار تقرير تشرشل الخاص بالحملة الشهيرة إلى أنَّ سلاح الفرسان قاتل بأسلحة متساوية، وبالسيف والرمح – على الرغم من إستخدام تشرشل لمسدس ماوزر أيضا. عندما وصف بقية المعركة، أشار إلى انتصار الانضباط والآلات البريطانية على الشجاعة الأكثر يأسا وتعصبا دينيا في العصور الوسطى والتي تصطدم مع تنظيم القرن التاسع عشر. في سبتمبر ١٨٨٩، أكمل كيتشنر عمليه الانتقام بإصدار أمر بتدمير قبر المهدي في أم درمان من قبل ابن أخ غوردون، وبعد ذلك رمي الهيكل العظمي للمهدي في النيل. منعت الإحتجاجات العامة، بما في ذلك تذمر الملكة كتشنر من إرسال جمجمة المهدي إلى لندن كنغيمة (ربما كمحبرة).

نجا عدد قليل من الصور الفتوغرافية من فترة حصار مايو ١٨٨٤، لأسباب ليس أقلها فقدان فريق كاميرا المهندس الملكي الصغيرة. بعد أكثر من عقد من الزمان، حمل العديد من الضباط كاميرات الكوداك التي تم تطويرها في أمريكا في ثمانينيات القرن التاسع عشر. فقد سبعة من الصحفيون حياتهم في حملة السودان الثانية، أما البعض الآخر من أمثال تشرشل فقد صعنوا أسماءهم من خلال تأليف كتب فورية. تم نشر كتاب ستيفن "مع كيتشنر إلى الخرطوم" في

غضون أسابيع من نهاية الحرب. ساعدت هذه الكتب في تحويل اللورد كيتشنر لاحقا إلى رمز إمبراطوري، على الرغم من كراهيته المعلنة للسُكارى التافهون. لم يكن تقرير ستيفن بمنأى عن النقد تماما: فقد كتب عن الشكوى الأبدية للجنود المقاتلين وهي أحذية الجيش ذات النوعية الرديئة. ومع ذلك، فقد قلّل من أهمية قتل الأنصار الجرحى في ساحة المعركة. هناك صحفي بارز آخر، هو بينيت بيرلي، إلا أنَّه لم يكن متحفظا جدا. كان متضايقا جدا بسبب عداء كتشنر له، فقام بنشر قصص نقدية عن المحارب البريطاني.

يبدو أنَّ للرقابة الذاتية علاقة كبيرة بالشخصية ومبيعات الكتب المحتملة تماما كحب الوطن.

لم يستطع كيتشنر أن يستمتع بأمجاده العسكرية أو الإعلامية، حيث كان عليه أن يواجه تهديدا أكبر من المهدية، وهو وصول القوة الحديثة متمثلة في فرنسا. إذا قمت برسم خط من الغرب إلى الشرق يحدد الطموحات الاستعمارية الفرنسية في أفريقيا وخطا مماثلا يمتد من رأس الرجاء الصالح إلى القاهرة رابطا بريطانيا باللون الوردي على الخريطة، فستتقاطع هذه الخطوط تقريبا عند فشودة في أعالى النيل الأبيض التي تسمى الآن كودوك في جمهورية جنوب السودان، ولا تزال مكانا مقدسا كعاصمة قديمة لمملكة الشلك. تكمن أهمية فشودة في نهاية القرن التاسع عشر، في قلعة صغيرة على ضفاف النهر. في يوليو ١٨٩٨ بعد رحلة ملحمية دامت أربعة عشر شهراً من الجنوب الغربي، ناضل الرائد جان بابتيست مارشان في البؤرة الإستيطانية المعزولة، حيث انطلق بمعية ١٣٢ رجل فقط ، بما في ذلك نواة صغيرة من الضباط البلجيكيين والفرنسيين، لكن العديد منهم مات بسبب المرض، وليس القتال. كان من المفترض أن يلتقوا مع قوة فرنسية أخرى تسير جنوبا من جيبوتي (الصومال الفرنسي). مستقلين الفراغ السابق للقوة الإمبراطورية البريطانية في السودان، أراد الفرنسيون المطالبة بمنابع اللبل. كان مارشاند غير واعٍ إلى حد كبير بمدى الانتصارات البريطانية الأخيرة في السودان. في ١٨ سبتمبر، وصلَ كتشنر وزوارقه الحربية إلى فشودة. يتحدث الجنرال البريطاني الفرنسية بطلاقة (فقد خالف الأوامر كطالب عسكري شاب من خلال التطوع للخدمة في سلاح الإسعاف الفرنسي في الحرب الفرنسية البروسية). جلس كتشنر واستمتع بعشاء لطيف مع الضابط الفرنسي المبتدئ. يتمتع البريطانيون بالميزة العسكرية وهذا ما تحدث عنه الفرنسي. كان كلا الرجلين على ما يرام. وبعد العشاء وتناول السيجار والكونياك، قررا تحويل النزاع إلى لندن وباريس. وبينما كانا ينتظران القرار، اتفقا بشكل ودي على رفع العلم البريطاني والفرنسي والمصري على القلعة. وعلى الرغم من دعوات الحرب في باريس، حيث كان تنحي بريطانيا عن السيطرة الأنجلو- فرنسية المشتركة في أوجهِ انتصر حزب السلام. اعترفت لندن بالحقوق الفرنسية في المغرب، وتُركت بريطانيا لإدارة السودان ومصر. ما كان يكمن وراء هذا النموذج غير العادي من الصداقة الأنجلو- فرنسية لم يكن مجرد شعورجيد، ولكن كان أيضا خوفا متبادلا من النزعة العسكرية المتزايدة لألمانيا، ليس فقط في أوروبا، ولكن أيضا في أفريقيا.

انتصرت السياسة الإمبريالية البريطانية. لندن تسيطر الآن على النيل من البحيرات الكبرى إلى البحر الأبيض المتوسط. وأصبح السودان، ومصر، وقبل كل شيء قناة السويس تحت سيطرتهم العسكرية بصورة آمنة. غادرالفرنسيون فشودة، وأصبحت العلامة الوحيدة على وجودهم اليوم هي رقعة صغيرة محاطة بالصلبان الحديدية حيث دُفن المستكشفين الفرنسيين الشجعان الذين ماتوا بسبب المرض وليس المدافع البريطانية. هذا هو كل ما تبقى من الحلم النابليوني بتجاوز فرنسا للنيل، بعد الحملات الفرنسية من ١٧٩٨-١٨٠١. وجاءت الحاشية النهائية لغزو كيتشنر في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩، حيث حاصر العقيد السير ريجينالد وينجيت بقايا جيش المهدي بالقرب

من مدينة كوستي الحالية وقتل الخليفة وحارسه الشخصي. كوستي هي اليوم موطن لجامعة الإمام المهدي، التي تأسست في عام ١٩٩٤، وقد تمت تسميتها بالطبع على شرف قائد الثورة المهدية. تسبب موت الخليفة في الزوال النهائي للثورة المهدية. وقد أُطيل أمد الحصول على الاستقلال السوداني بسبب القرارات الإمبريالية التي اتخذت في لندن والقاهرة. لقد استغرق الأمر ستون سنة حتى قام السودانيون برفع نير مصر بالقوة والتخلص منها، كما استغرق الأمر أكثر من ستون عاما حتى غادر البريطانيون، وسُمح للسودانين أخيرا، بأن يحكموا أنفسهم.

الفصل الثاني

الحكم البريطاني

على الرغم من الوصف الرسمي للحكم الثنائي الأنجلو- مصري، أصبح السودان الآن أرضا بريطانية مؤكدة. كان إيفلين بارينج، التي رُفِّع إلى النبلاء في عام ١٨٩٣ على يد اللورد كومر،يحلم بهذا الحل. وهكذا عكست القوة الاستعمارية الطموح الأصلي للخديوي محمد علي لتوحيد وادي النيل. لقد بذلت لندن الكثير من الدم والذهب للاحتفاظ بالسودان، كما لم يكن الإمبرياليون على وشك تسليمه إلى القاهرة، خاصة بعد إستشهاد غوردون ومعركة أمدرمان. رأى المعلقون البريطانيون بأنَّ الثورة المهدية كانت جزئياً نتيجة لسنوات طويلة من سوء الإدارة المصرية -التركية. إن بريطانيا الجديدة تقدم إدارة نزيهة وفعَّالة.

بالنسبة للنصف الثاني من القرن، فقد تُرك السودان إلى حد كبير لإدارة شؤونه الخاصة، باستثناء الحالات المتعلقة بالأمن الإمبريالي. ظهر العديد من مُدَّعو المهدية، لكن تم قمعهم بسهولة، إلا أنهم عززوا عدم ثقة البريطانيين عامة في الإسلام السياسي. كان الحكم البريطاني أقوى في المناطق الوسطى في المستعمرات على طول نهر النيل. ظلت المناطق الطرفية بعيدة إلى حد كبير حتى شكلت تهديدا للمركز. على سبيل المثال، لم يتم غزو دارفور حتى مايو ١٩١٦ عندما ظهر السلطان علي دينار وإنضم الأتراك إلى الجانب الألماني في أكتوبر١٩١٤. سحق البريطانيون جيش الفور وقتلوا السلطان في حملة قصيرة خارج الفاشر. قصر علي دينار السابق في الفاشر هو الآن عبارة عن متحف متهدم، مع بعض القطع الأثرية من السلطنة. لقد زرت مؤخرا "القصر" الصغير الساحر في عام ٢٠٠٤، عندما بدأت حرب جديدة في المنطقة. كان أمين المتحف رجلاً مجتهداً، لم يكن يتقاضى راتباً من المال منذ فترة، ولم يكن لديه المال للحفاظ على واحدة من الآثار القليلة الباقية من استقلال دارفور.

في الجنوب، لم تفعل حكومة الخرطوم سوى القليل، ما عدا جعل السدود أكثر قابلية للملاحة. قام ضباط بريطانيون من الجيش المصري بالإدارة الهيكلية بينما كانوا يشجعون المبشرين المسيحيين البريطانيين لنشر دينهم ولغتهم كحصن ضد تقدم الإسلام. تم تثبيط اللغة العربية بفعالية وكذلك التجار المسلمين الشماليين كما تم عزل الضباط المصريين والسودانيين الشماليين والقوات واستبدالهم بالقوات المرفَّعة محليا تحت إمرة الضباط البريطانين باستخدام اللغة الإنجليزية كلغة للقيادة، وبذلك شكلوا سلاح الإستوائية.

كان الشمال يُدار بشكل أساسي من قبل زمرة من خريجي أوكسبريدج يتحدثون اللغة العربية بطلاقة، والذين يشكلون الخدمة السياسية في السودان (*SPS*). وعلى العموم، فإنَّ هذه النخبة الصغيرة - حوالي ٤٠٠ شخص خلال كل الخمسين سنة من وجودها - كانت تدير الشمال بأبوية فعَّالة ومستقلة وصادقة. لكن كان لدى الخدمة السياسية في السودان القليل من التوجه المركزي. لم يكن هذا هو الحال في الجنوب، حيث كان الضباط المتقاعدين من الجيش البريطاني - الذين يعرفون باسم "بوغ بارونز" (نبلاء المستنقعات) - يحكمون بساتينهم الشاسعة من خلال قوة شخصياتهم المتوهجة. وقد تعلَّموا اللغات الأفريقية المحلية وحكموا في بعض الأحيان كما لو كانوا رؤساءا عظماء، فقد تُركوا وشأنهم طالما أنَّهم ينفذون الأوامر. إجمالا، خلق ذلك نوعا من الفوضى لأنَّ البريطانيين لم يستطيعوا تحديد ما سيفعلونه تجاه الجنوب. استمر الأسلوب البريطاني المميز المتمثل في "التخبط " لمدة تقرب من خمسون عامًا، وكان له إرث فظيع. إعتاد المدراء العرب على تجاهل الجنوب والغرب. وتاريخياً، كانت الدول المجاورة تحتفظ بقدر كبير من الهيمنة، إن لم يكن أكثر، على الشرق والغرب والجنوب كما فعلت الخرطوم. كانت هذه وصفة للحروب الحدودية التي لا نهاية لها.

لم يكن إحتمال اندلاع صراع بين الشمال والجنوب يلوح في الأفق بعد. كان البريطانيون في بادئ الأمر أكثر اهتماما ليس فقط بتجدد المهدية، بل أيضا بإمكانية نشوب نزاعات بين الطائفتين الإسلاميتين الرئيسيتين، ألا وهي الأنصار (الذين تحولوا فيما بعد إلى حزب الأمة) والختمية (التي شكلت فيما بعد الحزب الإتحادي الديمقراطي). كانت كلا الطائفتين تتوارث المسائل الأسرية التي كانت تنتج عقودا من الصراع السياسي الداخلي في الخرطوم. في نهاية المطاف، أصبحت جماعة إسلامية أكثر قوة، وهي جماعة الأخوان المسلمين، التي تحولت إلى حزب المؤتمر الوطني/ الإسلامي الوطني، هي المهيمنة. عندما دمّر البريطانيون الحركة المهدية، قاموا بتوزيع بذور التجديد الإسلامي لمدة قرن.

بدأ السودان يزدهر تحت قيادة حُكّام أقوياء وقادرين أمثال الجنرال السير ريجينالد وينجيت (١٨٩٩- ١٩١٦). اكتسب وينجيت مواهبه خلال حرب المهدية كضابط مخابرات يجيد اللغة العربية المنطوقة والمكتوبة كما أصبح أيضاً ابن عمه الأكثر شهرة، أوردي وينجيت، ضابط مخابرات يتحدث اللغة العربية في قوة الدفاع السودانية. كان كلا الونجتين مؤهلين إلى حد كبير ومستقلين في التفكير. لقد كان السير ريجينالد وينجيت أقل نجاحا عندما رُقِّي للخدمة في مصر كمفوض سامٍ، وكان يرفض الذهاب، حتى عندما وصل بديله، اللورد اللمبي، بالفعل. يُذكر السير ريجينالد وينجيت الآن في السودان لإصلاحاته التي قام بها في مجال التعليم. في عام١٩٠٢، تم إنشاء كلية غردون التذكارية لتعليم أبناء العرب النهرية الذين تم إختيارهم بعناية بالإضافة إلى بعض الجنوبيين. جاء جزء كبير من التمويل من الاشتراكات العامة في بريطانيا، حيث أنَّ خزانة الخرطوم كانت لا تزال تعتمد على المنح المصرية الشحيحة. تم تصميم المناهج الدراسية لخلق مهارات كتابية لتمكين الطلاب من التطلع إلى وظائف الخدمة المدنية الأقل مرتبة على الأغلب. لم تكن هناك أي تلميحات حتى الآن للتدريب على الحكم الذاتي. تم تشجيع الإسلام التقليدي، وليس الطقوس الصوفية، من قبل الأئمة الذين تم اختيارهم من قبل الحكومة، كما تم إنشاء نظام موازٍ للقضاة التقليديين لتسوية النزاعات الشخصية والداخلية في المحاكم الشرعية.

كانت التنمية الاقتصادية تمثل أولوية في أعقاب الدمار الناجم عن عقدين من الحرب بينما أصبح نقص الأيدي العاملة حادا في عدد السكان الذي ربما يصل إلى مليوني نسمة فقط. تم حظر تجارة الرقيق مرة أخرى، لكن التحرر الفوري في وقت نقص الأيدي العاملة كان من شأنه أن يعجل بحدوث ثورة سياسية. ظلت العبودية موجودة في عدد من الأشكال. إنَّ الإنجاز البريطاني الرئيسي كان هو مشروع الجزيرة للقطن الذي سرعان ما وفر العديد من الوظائف وفي نهاية المطاف فائضا في الميزانية للسودان، مما أدى إلى انخفاض الاعتماد السوداني على المنح المصرية.

في أواخر ١٩١٤، خلع البريطانيون الخديوي المصري لعلاقته مع الأتراك وقاموا بتنصيب بديل مرن برغم الغضب القومي. تم خلق بعض فرص العمل الإضافية من خلال المجهود الحربي، لكن التسريح المفاجئ لسلاح العمالة المصري في عام ١٩١٨، عزز معدلات البطالة المرتفعة. إضافة إلى ذلك، فقد ساعدت التكاليف اللوجستية للتدخل المصري في الحرب الكبرى، ومبادئ تقرير المصير التي أعلنها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون، في اشتعال ثورة شعبية ضد الحكم البريطاني في مصر عام ١٩١٩. طالب القوميون في القاهرة بالاستقلال لكل من مصر والسودان، وتم تأمين الاستقلالية المصرية باعتبارها ملكية دستورية في عام ١٩٢٢، باستثناء المجالات الحيوية الأساسية مثل الشؤون الخارجية والدفاع، بينما تم استبعاد السودان بشكل صريح. ولكن كيف يمكن تلقيح النخبة المتعلمة السودانية الصغيرة ضد فيروس القومية

المصرية؟ الجواب البريطاني، كما هو الحال في الكثير من البلدان الأفريقية الاستعمارية، كان "الحكم غير المباشر". كان لا بد للنخبة المثقفة في المناطق الحضرية أن تنمو مع التقدم الاقتصادي والتعليمي. تجاهل البريطانيون هذه المشكلة: سيتم اختيار قادة القبائل في الشمال والجنوب. ناسب ذلك العديد من الزعماء التقليديين في السودان، حيث كان يعتقد مسؤولو الخدمة السياسية في السودان البريطانيين أنَّهم يعكسون الشعور القومي الحقيقي، فالقادة التقليديون غالباً ما يعتبرون السودانيين المتحضرين المتعلمين أفنديه، وهو الاسم الذي يُطلق على البيروقراطيين الأجانب في فترة التركية والحكم الثنائي. ومن المفارقات، إنّ إحدى النتائج غير المقصودة من الحكم غير المباشر كانت تتمثّل في منح مزيد من الصلاحيات للزعماء التقليديين في الطرق الصوفية و بقايا الأنصار على حساب تحديث القوميين العلمانيين. وهكذا، تم تعزيز "الإسلاموية في بلد واحد".

بدا ذلك لفترة مجديا. لم تنهض النخبة السودانية المتحضرة خلال الانتفاضة المصرية عام ١٩١٩، لتنضم إلى إخوانها في الشمال. كان جزء من السبب هو انقسام الرأي الذي كان من شأنه تقويض القومية السودانية حتى الاستقلال: هل يجب أن يطمح السودان إلى أن يصبح دولة مستقلة أو أن يندمج مع شقيقته، مصر؟ بدأت التنظيمات الصغيرة تشكل دفاعا عن كلتا النتيجتين ولكنها أبقت نشاطها ومنشوراتها محدودة في الدوافع الثقافية في وقت اليقظة البريطانية. أسَّس علي عبد اللطيف تنظيما سياسيا أكثر صراحة، وهو جمعية اللواء الأبيض. لقد كان رجلا غير مرجّح له أن يصبح قائدا وطنيا نموذجيا، خاصّة بالنسبة للقيادة النهرية المقاومة للتغيير. بداية، كان علياً دينكاوياً جنوبياً، علاوة على أنِّه وُلد في عائلة من الرقيق في مصر. لكنه كان مسلما يتمتع بمهارات قيادية واضحة، صُقل في كلية غوردون ومدرسة الخرطوم العسكرية، تم طرده من الجيش بسبب التمرد. ادّعى أنَّه كان ضحية لغطرسة ضابط بريطاني غير عادية. كان يطالب بحق تقرير المصير وليس الوحدة مع مصر. تم سجنه لمدة ثلاث سنوات بسبب التحريض السياسي، خُفِّضت فيما بعد إلى سنه. عند إطلاق سراحه أصبح بطلا قوميا شجعة الدعم المصري، المالي والسياسي على حد سواء للتراجع عن وجهات نظره الأصلية حول تقرير المصير في السودان، وبدلا من ذلك دعى إلى الإتجاه القومي المصري الداعي ل "وحدة وادي النيل".

اعتمد الحكم البريطاني في نهاية المطاف على القوة العسكرية. أدّى سجن عبد اللطيف في ١٩٢٤ إلى مظاهرات مناهضة للبريطانيين، حيث تم قمع تمرد قامت به كتيبة السكك الحديدية التابعة للجيش المصري على يد القوات البريطانية. ثم تمرد خمسون طالبا سودانيا أيضا في المدرسة العسكرية في الخرطوم والذين استسلموا دون قتال وتم سجن القيادة وأُغلقت المدرسة وحذّر الحاكم العام، السير لي ستاك، من إتخاذ "إجراءات صارمة". بعد ذلك بوقت قصير، في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، أُغتيل السير لي ستاك في القاهرة على يد قومي مصري.

أصبح الإصلاح العسكري الآن أمرا حتميا. أعيد الجيش المصري من السودان، أحيانا تحت فوهات الأسلحة البريطانية.استقل الجنود قطاراتهم بهدوء. لم يكن الضباط السودانيون هادئون جدا حيث كانوا ممزقين بين اليمين الرسمي على الولاء للملك المصري فؤاد والاحترام الذي شعر به الكثير منهم تجاه العديد من رؤسائهم من الضباط البريطانيين. سارت وحدات من الكتيبة السودانية الحادية عشر في شوارع الخرطوم في ٢٧ نوفمبر وعندما رفضوا التفرق، فتحت القوات البريطانية النار على رفاقهم. حارب السودانيون، وقُتل أكثر من ثلاثون شخصا، من بينهم ١٥ جنديا بريطانيا بينما تم إعدام ثلاثة متمردين سودانيين فيما بعد. كان البريطانيون

يعملون بمبدأ "فرق تسُد" في السودان بخلق نوع من الإرتباك والتنافس بسبب التنوع الديني والسياسي والقبلي. لقد تم قمع أوهدم تطورالحركات السياسية المركزية التي يمكن أن تتحدى الحكم الإمبريالي. ومع ذلك، فمن المفارقات، أنَّ البريطانيين بدأوا منذ تلك اللحظة في تكوين ما أصبح عمودا مركزيا للهوية الوطنية خلال التسعين سنة القادمة – ألا وهي الجيش السوداني، الذي في البداية، وبطبيعة الحال، كان المقصود منه هو تنفيذ الأوامر الإمبريالية.

تشكيل الجيش السوداني

تأسست قوة الدفاع السودانية في عام ١٩٢٥ كرد فعل على الاضطرابات في العام السابق. حتى ذلك الحين، خدم السودانيون في كتائب مشاة منفصلة عن الجيش المصري تحت إمرة ضباط بريطانيين ومصريين. وقد وُصفت هذه الكتائب بأنَّها كتائب عربية أو سودانية. تم تجنيد المصريين من خلال التجنيد السنوي، لكن الوحدات السودانية كانت تتكون من المتطوعين الذين خدموا لفترة طويلة. الآن تم استبدال المصريين الذين تم فصلهم بصغار الضباط المكلفين وضباط الصف السودانيين، كما تم تدريب كوادر جديدة من الضباط في أم درمان، معظمهم من المسلمين العرب الشماليين. لا تزال القيادة والسيطرة تقع على عاتق الضباط البريطانيين، حيث تم نقل ١٤٠ من البريطانيين من الجيش المصري. كانت القوة الأولية لقوة الدفاع السودانية تتروح ما بين ٤٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ متطوع، على الرغم من أنَّها ازدادت بسرعة خلال الحرب العالمية الثانية.

كإجراء إحترازي، كان البريطانيون دائما ما يحتفظون بكتيبة من قواتهم في العاصمة. مع حل الكتيبة السودانية القديمة، التي تم تحديدها بالأرقام، حاول المنهج الجديد تنمية الولاء الإقليمي، بصورة لا تختلف عن هيكل الفرق البريطاني القائم على أساس الانتماءات الإقليمية. أصبح الترتيب الإقليمي للمعركة كالآتي:

الفرقة الإستوائية بالجنوب

الفرقة العربية الشرقية

الفرقة الغربية العربية

فرقة الهجانة السودانية

الخيالة شندي

كانت هذه الفرق مدعومة من قبل فروع متخصصة مثل المدفعية والمهندسين والسيارات المدرعة ووحدات المدافع الرشاشة، فضلا عن الخدمات الطبية وخدمات الإشارة وخدمات النقل القياسية. على الرغم من أنَّ اللغة الإنجليزية كانت هي لغة القيادة، إلا أنَّ هياكل الرتب التركية المصرية للضباط والرجال قد بقيت موجودة. على سبيل المثال، كان الرائد لا يزال يُدعى بيمباشي. كان الدور الأساسي الرئيسي لقوة الدفاع السوادنية هو الأمن الداخلي، لدعم الشرطة وتوفير الحاميات التي يمكن أن ترفع العلم في جميع أنحاء البلاد الشاسعة. في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين (١٩٣٠)، تم إنشاء قوة حدودية سودانية حيث كانت هنالك مواجهه تهديدات

من قبل الإيطاليين. كما تم إنشاء وحدات غير نظامية خاصة في وقت لاحق: على سبيل المثال، قوة جدعون بقيادة أوردي وينجيت.

أمضى أوردي وينجيت السنوات من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٣ في قوة دفاع السودان، فقد أوصى به قريبه الجنرال السير ريجينالد وينجيت وبالتالي فقد تمت مخالفة اللائحة التي كانت تنص على أنَّه يجب على الضباط البريطانيون أن يتولوا المهام لمدة خمسة سنوات بحيث كان على الضابط البريطاني الذي يخدم في قوة دفاع السودان أن يكون تحت ضمانة أوردي.

دائما ما كانت الإتصالات مهمة في النظام العسكري البريطاني. تمت ترقية النقيب وينجيت إلى بيمباشي (رائد) وتم تعيينه في الفرقة الشرقية العربية للقيام بدوريات على الحدود مع أريتريا. كان مقره في منطقة الدندر، وهي مزيج من الغابات الصحراوية والغابات الكثيفة، تتخللها مجاري النهر والجداول الصغيرة. كانت المنطقة غير مخططة وغير مكتشفة إلى حد كبير. هذا هو المكان الذي قام فيه الجنرال المستقبلي بوضع نظريات حرب العصابات. من خلال قتال عصابات قُطّاع الطرق أو استعبادها من أثيوبيا. شارك وينجيت في عمليات قوة دفاع السودان المشتركة مع القوات الجوية الملكية حيث كات تحلق فيبري *"777Fs"* المكونة من ٤٧ سربا (قاذفة قنابل) ضد انتفاضة مهدية أخرى في عام ١٩٢٨. انتهز وينجيت الفرصة للمغامرة في رحلته الأولى في إحدى طائرات "فيبري"، متجهاً من كسلا إلى الخرطوم. كان وينجيت يستمتع بمشاهدة مئات الأفيال الموجودة تحته، لكنه كان مريضا بشدة – بالقرب من الطيّار- لم يكن يحب الطيران مطلقا، وكثيرا ما كانت لديه هواجس عن الموت لا سيما على متن الطائرة.

وضع وينجيت خلال سنوات عمله في قوة دفاع السودان نظرياته عن قوات الغارات الجوية المستقلة الصغيرة التي تعمل أحيانا بدعم جوي. على الرغم من سمعته المعادية للمجتمع في وقت لاحق من حياته المهنية، ونوبات الإكتئاب المخبأة بشكل جيد، إلا أنَّ وينجيت كان يحظى باحترام كبيرفي قوة دفاع السودان، لا سيما لمهارته في لعبة البولو، على الرغم من تحذيره من قبل الضابط المسؤول بعدم مناقشة السياسة خاصة الماركسية في مطعم الضباط. قبل السودان كان وينجيت يجابه خطر الطرد من الجيش، لكن القيادة المستقلة في بلد همجي هي من صنعته. غالبا ما تتم المقارنة بين كل من وينجيت وتي أل لورانس: فقد ضغط كل من الرجلين على نفسه بدنيا إلى ما هو أبعد من التحمل الطبيعي، كما أنَّ كليهما لم يكن فعّالا في مجتمعه الخاص وجاءا لنُصرة " الآخرين" كشعب مختار حيث أصبح لورانس مهووسا بالبدو وخاطر وينجيت بمسيرته المهنية في مساعدة الصهاينة في فلسطين. ربما لم يلتقيا أبداً، لكن وينجيت كان ينتقد لورانس بشدة في وقت لاحق واصفا إياه بالدّجال، وربما كان لوجهات نظرهم المتضاربة جداً عن العرب واليهود علاقة بهذا العداء. كان على ونجيت العودة إلى السودان خلال حرب ١٩٣٣-٤٥ التي من شأنها إختبار الإصلاحات العسكرية السودانية لسنوات ما بين الحربين العالميتين.

كانت الإصلاحات العسكرية مبنية جزئياً على تشجيع الهوية المحلية لمختلف الفرق. لكن العملية السياسية المركزية من الخرطوم تميل إلى دعم القيادة العرقية بدلاً من القيادة الإقليمية، والتي لم تكن دائما الشيء نفسه. كانت الهياكل القبلية في الشمال مختلفة في كثير من الأحيان كما كان الأمر أكثر صعوبة في الجنوب حيث كانت القبائل الأكثر إكتظاظاً بالسكان هي النوير والدينكا اللتان كانتا تميلان إلى تجنب الهياكل الملكية الرسمية وتعتمدان بدلاً عن ذلك على القادة الروحيين أو الأنبياء. كان على مفوضي المقاطعات البريطانيون المحبطون في بعض الأحيان أن يخترعوا زعماء أو أن يعودوا إلى العجز السياسي مع قليل من المتابعة، أو حتى البحث عن "القبائل المفقودة" المراوغة. تطور التعليم ببطء باللغة الإنجليزية في المدارس التبشيرية

الجنوبية، أما في الشمال، فقد تم توسيع المدارس الإبتدائية، مع مزيد من التركيز على التعليم الإسلامي الأرثوذكسي في كثير من الأحيان، مع تعلم القرآن الكريم عن ظهر قلب، بدلا من التعليم العلماني. وأتهم القوميون العلمانيون في الخرطوم بريطانيا بتطبيقها سياسة مدبرة لفصل الشمال من خلال السياسات اللغوية والتعليمية المنفصلة. على أية حال، لقد كان ذلك انجرافا عرضيا وتكيفا عمليا مع الظروف المحلية أكثر من كونه هدفا خبيثا. عمل المسؤولون البريطانيون مع قرين في المناطق التي كانوا يديرونها بوضع القليل في الإعتبار أكثر من الحفاظ على الوضع الراهن. كانت " الاضطرابات" في الجنوب تُقابل في كثير من الأحيان بالعقاب الراديكالي، خاصة ضد النوير الذين من شأنهم أن يختفوا في السدود أو عبر الحدود الأثيوبية. لقد ساعد الازدهار الاقتصادي المتصاعد في الشمال على تخفيف الاستياء كما زادت المشاريع الرئيسية الممولة من الحكومة مثل سد سنار من مساحة الأراضي المروية. أضاف مشروع الجزيرة، الذي أُنشئ أصلا في عام ١٩١٣، إلى دخل المزارعين المستأجرين. إلى الجنوب من الخرطوم، كان هنالك واحد من أكبر مشاريع الري في العالم. تمت إدارة القطن من قبل شركة خاصة، وهي نقابة مزارع السودان، لكن الحكومة أبقت العين الخيّرة على الأسعار والأجور. تمتع السودان بعشر سنوات من الطفرة في مجال القطن الملك، ولكن انهيار عام ١٩٢٩ ضرب اقتصاد المحاصيل المفردة بشكل سيء للغاية. وكانت النقابات العمالية الفعّالة لا تزال غائبة لأكثر من عقد من الزمان.

كان من المفهوم في المناصب العليا في الخدمة المدنية في السودان، أنَّ "الإدارة المحلية" في الجنوب والشمال لا يمكن أن تعتمد على التعليم الكافي فقط لإنتاج كتبة ومحاسبين لملء الدرجات الدنيا في الحكومة. في الجنوب ظلّت الأوضاع متردية، حيث اكتشف المكتب الأجنبي فجأة عام ١٩٣٦ أنَّه لم تكن هناك مدرسة حكومية واحدة. تغيّرت نوعية المدارس المسيحية بشكل كبير. في كثير من الأحيان، بدأت المشاجرات بين الكاثوليك والمتظاهرين لتماثل الانقسامات الطائفية في الجنوب، حيث تحسّنت المعايير التعليمية بسرعة في ١٩٣٠. تم إدخال كليات تدريب المعلمين ومدارس القانون والهندسة والطب والزراعة، حتى كلية غوردون التذكارية تم إصلاحها ، على الرغم من أنَّه لم يتم تسميتها باسم جامعة الخرطوم حتى عام ١٩٥١.

التعليم المُحسّن يعني حتما نخبة متعلمة أكبر. في عام ١٩٣٨، تم تشكيل مؤتمر للخريجين. بحلول أوائل الأربعينات من القرن الماضي، تم تشكيل الأحزاب السياسية البدائية. وقد دفعت بعض المعارضة السودانية إلى تصاعُد النزعة القومية لمشاركة البلاد في ما أسموه حرباً بريطانية عام ١٩٣٩. أرادوا التحرر من بريطانيا – "السودانيين للسودانيين" - ولكنهم لم يستطيعوا بعد أن يقرروا ما إذا كان الإتحاد مع مصر هو الحل، أم العكس، وهو العودة إلى الهيمنة الأجنبية المتعددة. لا يزال التنافس العلماني والطائفي يمزق في قلب القومية السودانية. حارب الأرثوذكس أكثر الفروع صوفية، في حين أن تجادل الأنصار والختمية، وهي واحدة من أكبرالطرق الصوفية في الشرق الأوسط، مع التحديثيين العلمانيين. كان الإتحاد المصرى وعدمه هو الجدل الرئيسى، ولكن تم تحليل قضايا أخرى مثل الدولة الدينية أو الاشتراكية بحماس. في عام ١٩٤٣، أنشأ البريطانيون مجلسا إستشاريا لدمج المتطلبات المحدودة والمهذبة للنخبة المثقفة المتحضرة المعتدلة، لكن من غير المرجح أن يقدم البريطانيون أي تنازلات كبيرة إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

أدّى صراع ١٩٣٩-١٩٤٥ إلى حدوث تحول قوة دفاع السودان. كان لا يزال معظم الضباط البريطانيون منتدبون على سبيل الإعارة لمدة عامين، في فترة إختبارأقصاها خمس سنوات، في الوقت الذي كان من المتوقع عودة الضباط إلى فرقهم الخاصة. كانت عوامل الجذب إلى السودان تتمثل في الترفيع المحلي من رتبة واحدة، واستقلال القيادة، وغالبا ما يكون نمط الحياة أكثر توسُعا بما في ذلك أماكن الإقامة الكبيرة والخدم بالإضافة إلى استكشاف الصحراء، والمناطق الأثرية والرياضة، وخاصة لعبة الصيد. كما سُمح لبعض رجال أوكسبريدج في الخدمة السياسية في السودان بالإنضمام للجيش. عندما أعلنت إيطاليا الحرب في بريطانيا في عام ١٩٤٠، ذهبت قوة دفاع السودان في موقف دفاعي في المقام الأول لمنع التعديات من الحبشة المحتلة الإيطالية وأريتريا. استولى الإيطاليون على العديد من المدن والقرى الحدودية الصغيرة في السودان، وكان أهمها نقطة إلتقاء السكك الحديدية في كسلا. في أغسطس هاجمت قوّة غير نظامية صغيرة من القوات الأريترية واقتحمت شمالا حتى بورتسودان. كانت الحملات الإيطالية الأولى في الحبشة قد تسببت في الفوضى، فقد تم سحقها في معركة أدوا في عام ١٨٩٦. لقد كانت المحاولة الثانية للجيش الإيطالي في عام ١٩٣٦ منظمة بشكل أفضل بكثير في الحرب العظمى حيث أراقت الدماء وتم تحديثها جزئياً من خلال ثورة موسوليني الفاشية. كانت همجية الحرب تميل إلى التقليل من تقديرها جزئياً بسبب إرثها للكتاب الأكثر شهرة وتطرفاً عن الصحفيين في الحرب، "سبق إيفلين ووف الصحفي". يكره معظم المراسلين الغربيين الزعيم الفاشي الإيطالي المنمق، بنيتو موسوليني، ويفضلون الإمبراطور المستضعف، هيلا سيلاسي. تم استخدام الغاز السام على نطاق واسع من قبل الإيطاليين، على الرغم من أنَّ الدعاية التي غطّت الحرب كانت الغيوم الغازية. زعم أحد المؤرخين أنَّ ٩٩ في المائة من الصور كانت مزيفة على عكس ما كانت عليه البربرية في كلا الجانبين.

يميل ووف وآخرون إلى خلق صورة تُبين أنَّ الإيطاليين كانوا يحاربون بشكل سئ على الدوام. خلال الحرب العالمية الثانية، ناضل الإيطاليون بقوة من أجل الاحتفاظ بإمبراطوريتهم الشرق أفريقية (أفريقيا الشرقية). قاد ضباط فاشيون في الحبشة / أثيوبيا وحدها، قوة مكونه من ٢٥٠٠٠٠ جندي إيطالي ومحلي. بعد التوغل الأوّل في السودان، في أكتوبر ١٩٤٠، عقد السكرتير البريطاني، السير أنتوني إيدن، قمة إمبريالية كبرى في الخرطوم، حيث كان الحضور فيها جنرالات بريطانيون من الشرق الأوسط والهند بالإضافة إلى الجنرال جان سموتس، الجنوب أفريقي الذي كان ينوب عن ونستون تشرشل. قبل القضاء على الجيوش الإيطالية في شمال أفريقيا، تم إتخاذ قرار بإيقاف الفاشيين في الشرق وذلك بأن يتم تنفيذ هجوم ثلاثي، من السودان إلى أريتريا وأثيوبيا وإلى أثيوبيا والصومال من كينيا في الجنوب.

على الرغم من أنَّ الجنود البريطانيين والجنود الهنود (بالإضافة إلى العناصر الجنوب أفريقية والجنوبية الرودسية) كانوا يشاركون في هذه الجريمة الكبيرة، إلا أنَّ القوى العاملة كانت قليلة. أُتخذ القرار بتعزيز القوات السودانية. شجعت سنوات التدريب تحت إمرة الضباط البريطانيين والتجربة في مناخ وتضاريس شاقة كبار الضباط لإستخدام بعض أفضل القوات السودانية لتشكيل ما يسمى اليوم بالقوات الخاصة، التي تم وصفها بأنَّها وحدات غير نظامية تقوم بتنفيذ عمليات الإستطلاع والغارات الجوية. في أكتوبر ١٩٤٠، أصبحت ثلاث شركات مدافع رشاشة متحركة جزءا من قوة غزال، بقيادة العقيد الصريح ميسرفي، وهو ضابط بالجيش الهندي والذي أصبح فيما بعد أول قائد لجيش باكستان. وُضعت عناصر من كتيبة الحدود تحت قيادة الرائد أوردي وينجيت، الذي سبق له العمل لمدة خمس سنوات في قوة دفاع السودان وقد أُطلق على هذه الوحدة الثانية اسم "قوة جدعون" بعد أن قاد القاضي التوراتي جدعون فرقة صغيرة من

الإسرائيليين التي قهرت جيشا كبيرا. دائما ما كان وينجيت يقود من الجبهه فقد كان بلا شك شجاعا، ولكن كانت لديه عادات شخصية غريبة، مثل عدم الإستحمام، وتناول البصل الخام والثوم أثناء حضوره للإجتماعات ومخاطبة زُوار منزله عاريا تماما في كثير من الأحيان- مما كان سببا في عدم الارتياح بين ضباطه القياديين. كان أيضا متصوفا مسيحيا متشددا ومؤيدا للصهيونية. أمضى وينجيت الكثير من الثلاثينيات في فلسطين، حيث استخدم أساليب غير قويمة للغاية أثناء قيادته لفرقته الليلية الخاصه المُكوَّنة من الجنود اليهود والبريطانيين خلال الثورة العربية في الفترة من ١٩٣٦-٣٩.

وصل رسول الحرب غير النظامية المثير للجدل إلى الخرطوم في ٦ نوفمبر ١٩٤٠. وكما هو الحال في فلسطين، فقد اختار رجالا حازمين كقادة له، وكان من أشهرهم المستكشف العربى ويلفريد ثيسيجر. شاركت وحدات أخرى أكثر تقليدية من قوة دفاع السودان، بما في ذلك قوات المدفعية في الهجوم الكبير في يناير ١٩٤١. أثبتت قوات غزال وجدعون فعاليتها بشكل كبير، لا سيما في التواصل مع الثوار الأثيوبيين الذين قاتلوا من أجل إمبراطورهم. وقعت المعارك الرئيسية للحملة في فبراير ومارس ١٩٤١ حول كيرين على الطريق المؤدي إلى العاصمة الأريتريه، أسمرا. وكثيرا ما حارب الإيطاليين بمهارة على - غرار نخبة المظليين الألمان - وتسببوا في خسائر فادحة في صفوف قوات الجيش الهندي وأفواج الهضاب البريطانية ذات الخبرة. في نهاية المطاف، ومع ذلك تم سحق الإيطاليين. كان النشاط العسكري السوداني في الشرق قد انتهى باستثناء الإحتلال والمهام الحدودية، كما تم حل قوات جدعون وغزال في أوائل صيف عام ١٩٤١، وقد أثبتت قيمتها وانضم العديد من السودانيين للقتال مع أكثر الوحدات شهرة في الجبهة الرئيسية في شمال أفريقيا. واصل وينجيت في وضع نظرياته الأصلية لحرب العصابات عن طريق قيادة تشكيلات أكبر بكثير من عصابات الشندت *(chindits)* في بورما. اعتقد العديد من زملائه أنَّه مجنون، لكنه أثبت أنَّه قائد عصابات فعّال جداً في فلسطين والسودان وأخيرا بورما، حيث توفي، كقائد عام، في حادث تحطم طائرة في مارس ١٩٤٤. وفي هذه الأثناء، عمل أتباعه من الوحدات الصغيرة في قوة دفاع السودان بشكل وثيق مع المجموعة الصحراوية بعيدة المدى (*LRDG*)، - من وسط رواد الخدمة الجوية الخاصة في جنوب شرق ليبيا. تم استخدام قوة دفاع السودان لتموين المجموعة الصحراوية بعيدة المدى والمواقع الفرنسية الحرة في المستعمرة الإيطالية في ليبيا. تقدّمت القوات الفرنسية تحت قيادة العقيد فيليب لوكلير نحو صحراء لا يمكن الوصول إليها تقريبا من تشاد في أفريقيا الإستوائية الفرنسية. استولت الوحدات الأنجلو- فرنسية على واحات وقلعة خلال معركة الكفرة في مارس ١٩٤١. كانت إعادة التموين صعبة للغاية بسبب التفوق الجوي الإيطالي المحلي، فقد كانت المنطقة الحدودية الليبية السودانية، إلى حد كبير عباره عن صحراء أو أشجارمنخفضة والتى كانت تستخدم من قبل قوة دفاع السودان لتسيير شاحنات الإمداد، وفي وقت لاحق استولت القوة على مهام الحامية في واحة الكفرة. كما شاركت قوة دفاع السودان في عمليات سرية للغاية لمنع جنود الكوماندوزالألمانية من التسلل إلى مصر. كذلك عمل موظفو قوة دفاع السودان مع المخابرات العسكرية البريطانية لاعتراض عملاء سريين ألمان كانوا يأملون في تشجيع قيام انتفاضة مصرية ضد الحكم البريطاني.

بحلول نهاية الصراع العالمي في عام ١٩٤٥، كان بإمكان قوة دفاع السودان أن تتباهى بـخوضها "حربا جيدة"، حيث أظهر ضباطها السودانيون السبعون خدمة متميزة في الحروب التقليدية وغير النظامية في جميع أنحاء شمال وشرق أفريقيا. عندما كان المستقلون يلوحون في

الأفق، استبدل المزيد من الضباط المحليين بنظرائهم البريطانيين . بحلول مارس ١٩٤٥، كانت القوات البريطانية في السودان تتألف من كتيبة واحدة تتمركز في الخرطوم. كانت قوة دفاع السودان تحت إمرة القيادة البريطانية، لكن نائب القائد كان إبراهيم عبود الذي ولد في سواكن في عام ١٩٠٠، وعمل الجنرال السوداني المستقبلي في مصر والعراق، وكذلك في عمليات في شمال وشرق أفريقيا. تولى الجنرال عبود قائداً أعلى لقوة دفاع السودان عند الاستقلال. في البداية، ظل بعيدا عن السياسة، لكنه كان يرأس مؤسسة منضبطة ويتم التحكم فيها مركزيا في البلاد. لم يكن الإرث الأكثر ديمومة للبريطانيين هو ديمقراطية دستورية، أو تعليم إنجليزي، أو حكم القانون، بل كان الدور المحوري الفعّال للجيش الوطني في حياة السودانيين.

خطوات نحو الاستقلال:

يمكن قول الشيء نفسه عن أي من الأحزاب السياسية الناشئة. في يونيو ١٩٤٧، التقى البريطانيون والسودانيون من الشمال والجنوب في جوبا حيث اتفقوا على قيام دولة سودانية موحدة وجمعية مشتركة مستقبلية في الخرطوم. شعر الجنوبيون آنذاك بأنَّ افتقارهم للخبرة التعليمية والسياسية جعلهم في وضع سيئ للغاية في هذه المفاوضات، زعم مؤرِّخو الجنوب في وقت لاحق أنَّ اجتماع جوبا كان انتقاما كاملا. ومع ذلك، أقامت بريطانيا أول مجلس تشريعي يضم خمسة وسبعون عضواً في ديسمبر ١٩٤٨- تم انتخاب بعضهم وترشيح آخرين، مع تخصيص ثلاثة عشر مقعداً للجنوبيين. رفض حزب الأمة المهيمن في الجمعية السودانية الضغوط القوية المصرية من أجل الإتحاد بتشجيع من البريطانيين. في عام ١٩٥١، كشف المصريون عن دستور جديد لمصر وسودان موحّد دون إستشارة السودانيين مما أثار غضب العديد من قادة الخرطوم. بحلول عام ١٩٥٢، كانت الأغلبية في المجلس التشريعي تنشط تجاه الاستقلال. أُدخل لاعب جديد، حيث فرضت الحكومة الأمريكية وضعها الجديد كقوة عظمى في مرحلة ما بعد الحرب لإقناع بريطانيا المنهكة والمشرفة على الإفلاس لحل "قضية السودان" بصيغة لا تزعج التاج والحكومة المصريين. كانت واشنطن تتدخل بشكل منتظم ضد المصالح البريطانية في الشرق الأوسط، بحجة أنَّ الولايات المتحدة لم تخُض الحرب العالمية الثانية للحفاظ على الإمبراطورية البريطانية. توقّف الحوار الدولي حول قضية السودان في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بشكل مثيرعندما أطاح مجلس قيادة الثورة بالملك فاروق. صدمت الإطاحة بالملك الشرق الأوسط، بما في ذلك السودان. تم تشكيل الثورة من قبل ضباط الجيش المصريين الشباب بقيادة اللواء محمد نجيب الذي كان نصف سوداني وتلقى تعليمه في السودان. أصبح الجنرال نجيب رئيس الوزراء المصري في سبتمبر وقد غيّر السياسة تجاه السودان. تم التشاور مع الأحزاب السودانية الرائدة وتشجيعها على المطالبة بالحكم الذاتي الفوري من البريطانيين. أُجريت انتخابات في السودان فاز فيها الحزب الإتحادي الوطني بقيادة إسماعيل الأزهري بأغلبية ٥١ مقعدا في مجلس النُوَّاب المُكوَّن من سبعة وتسعين مقعدا، يليه فوزحزب الأمة بـ ٢٢ مقعدا، بينما فاز الحزب الجنوبي بعشرة مقاعد. أبلى الحزب الإتحادي الوطني بلاءا حسنا في المجلس الجديد. كان نمط التصويت صارما على أُسس طائفية، يعكس خلافات قديمة حول الإسلام والسياسة. لم يُطبّق ذلك في الجنوب، لكن الحزب الإتحادي الوطني أخذ ثلاثة مقاعد هناك، ويرجع ذلك جزئيا إلى عدم وجود مرشحين متعلمين، فضلا عن التوزيع السخي للنقود والوعود الزائدية التي لا قيمة لها. وقد وضع ذلك نموذجا للعلاقات المستقبلية بين الشمال والجنوب. إنَّ فوز الحزب الإتحادي الوطني يعني للوهلة الأولى، تصويتا شعبيا للإتحاد مع

مصر. في الواقع، عكس ذلك الرغبة الكبيرة في أن يُغادر البريطانيين في أقرب وقت ممكن، أياً كان اسم الحزب الذي يمكنه تحقيق ذلك الهدف في أقصر وقت ممكن. وقد ظهر العداء المستمر لمصر في مارس ١٩٥٣ خلال زيارة رسمية قام بها الجنرال نجيب. قام السيد عبد الرحمن، الذي قاد المعارضة للحزب الإتحادي الوطني، بتنظيم أكثر من ٥٠٠٠٠ من الأنصار الريفيين للقدوم إلى الخرطوم الذين حاولوا اقتحام قصر الحاكم العام، حيث قُتل عشرة من رجال الشرطة بمن فيهم قائدهم البريطاني، الذي تم تقطيعه إربا حتى الموت. تم استدعاء القوات وقُتل المزيد من المتظاهرين. أقنعت السلطات البريطانية سيد عبدالرحمن أن يأمر الأنصار بالعودة إلى ديارهم، وأُلغيت الجلسة الإفتتاحية الرسمية للبرلمان وسرعان ما عاد الجنرال نجيب إلى القاهرة. أجبرت أعمال الشغب المحيطة بزيارة نجيب معظم الزعماء السودانيين على قبول الحاجة إلى الاستقلال. حثت أصول نجيب المحلية إلى حصوله على دعم بعض السودانيين، لكنه عُزل في انقلاب قاده العقيد جمال عبد الناصر، الذي كان أقل شعبية في الخرطوم، على الرغم من خدمته العسكرية (القصيرة) في البلاد. عزّز عبد الناصر موقفه بالقمع الوحشي للشيوعيين وكذلك حلفائه السابقين، جماعة الإخوان المسلمين، مما أسس نمطا من العداء بين الإخوان والجيش تفاقم لعقود واندلع مرة أخرى في "الربيع العربي" عام ٢٠١١، وأدّى إلى عمليات القتل والإعدام من قبل الجيش في٢٠١٣/٢٠١٤. أعلن الإضراب الثوري في مصر في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين عن التراجع الإمبراطوري السريع في المنطقة. في بداية عام١٩٤٥، أُحيل المسؤوليين البريطانيين في السودان للتقاعد بسرعة مقابل مدفوعات سخية، والتي قبلت بها القيادة السودانية لكونها أرخص بكثير من التمرد المسلح وأكثر سلما من الفوضى في مصر. تمت سودنة المئات من وظائف الخدمة المدنية، ولكن لم يذهب منها سوى القليل للموظفين الجنوبيين العاملين بالجنوب. الشماليون الآن يرددون الحجة الاستعمارية المتقنة حول عدم وجود الجنوبيين المؤهلين. كان هذا صحيحا، لكن التعصب العنصري والديني وضّح الهيمنة الشمالية على عملية السودنة. رفض رئيس الوزراء المستقبلي، إسماعيل الأزهري، "الشكاوي الطفولية" للجنوبيين. وقد لخص غريغوريا دينك كير، وهو رجل أعمال جنوبي، المرارة التي يشعر بها في الجنوب: "كما يبدو، فهذا يعني أنَّ زملاءنا الشماليين يريدون استعمارنا لمائة عام أخرى". لم يكن إدراج الجنوبيين المترددين والضعفاء في المسيرة السريعة نحو الاستقلال يعني فقط الاستعمار الشمالي، بل كان أيضاً نذيرا لعقود من الحروب. جاء الشماليون، الأجانب دينا ولغة، إلى الجنوب ليكونوا مشرفين على "قطع الأخشاب وجمع المياه". بدأ الزعماء السياسيون الجنوبيون بعد فوات الأوان، بالتحريض على تشكيل نظام فيدرالي لحماية مصالحهم. في يوليو ١٩٥٥، حُكم على عضو معارض من جنوب السودان بشكل تعسفي بالسجن لمدة طويلة. تمرد أتباعه وتعين استدعاء القوات. في نازارا، مركز صناعة النسيج المحلية، قتلت الشرطة ثمانية من المتظاهرين. وقد بدا أنَّ الانتفاضة واسعة الانتشار في الجنوب كانت وشيكة وأنَّ الجيش هو أفضل ضامن للأمن. هل ستبقى القوات الجنوبية موالية للخرطوم؟

انتشرت شائعات الانتقام الشمالي في جميع أنحاء الجنوب. كانت حامية الفرقة الإستوائية، التي أُعيدت تسميتها بالفرقة الجنوبية، ومقرها في توريت، مضطربة بشكل كبير. كانت السرية رقم ٢ على وشك أن يتم إلحاقها بالخرطوم استعدادا لاحتفالات الاستقلال، ولكن الشائعة انتشرت بأنَّه سيتم استعبادهم أو قتلهم فور وصولهم. اقتحم الجنود الجنوبيون مستودع الأسلحة في ١٨ أغسطس ١٩٥٥ واستخدموا أسلحتهم لقتل الشماليين في المنطقة - ضباطهم وتجارهم ونساءهم وأطفالهم. انتشر التمرد مثل نار في هشيم إلى جوبا، ويي وماندي. قُتل مسؤولون من الشمال

دون تمييز كما فرّ مدراء شماليون من واو، تاركين الشرطة الجنوبية في السيطرة. أما البريطانيين فقد ظلوا - مع القوات العسكرية الموجودة بالكاد - خارج المعركة. قُتل مئات السودانيين في الجنوب، ومعظمهم من الشماليين. استغرق الأمر أكثر من أسبوعين حتى يتم نقل القوات الشمالية جوا لاستعادة بعض النظام.

فرّ معظم المتمردين إلى الأدغال، وشكّلوا أول نواة لجيش حرب العصابات. استسلم عدد قليل منهم فحُوكموا وأُعدموا. وسرعان ما عزّزت المرارة الشمالية غير المحسوبة بسبب عمليات القتل العشوائية السياسة المُدبّرة للسيطرة العسكرية في الجنوب، بدلاً من المصالحة السياسية. بالنسبة للجنوبيين، أصبحت الثورة في توريت في ١٨ أغسطس ١٩٥٥ هي يوم النصر للكفاح المسلح في جنوب السودان. أصبحت مدينة توريت الصغيرة محور الإهتمام الشعبي للهتاف الجنوبي من أجل الحرية. كانت القوات البريطانية الأخيرة، متمثلة في الكتيبة الأولى لفوج رويال ليسترشاير ، قد غادرت البلاد في ١٦ أغسطس ١٩٥٥. وفي الغياب العسكري البريطاني، ناقشت أقلية من السياسيين الموالين لمصر في الخرطوم ما إذا كان عليهم أن يطلبوا تدخُل القاهرة خلال ما يسمى "اضطرابات جنوب السودان". مثل هذا الخيار كان لعنة على جميع أعضاء مجلس النواب تقريبا. في ١٩ ديسمبر ١٩٥٥، صوتوا بالإجماع على إعلان السودان دولة مستقلة. في ١ يناير ١٩٥٦، في حفل منظم على عجل، تم إنزال علمي مصر وبريطانيا العظمى ورُفع علم جمهورية السودان الجديد – عبارة عن ثلاثة خطوط أفقية من اللون الأحمر والأبيض والأسود -. في رأس السنة الجديدة ١٩٥٦، تولّى السودانيون السيطرة السياسية والعسكرية (على الرغم من بقاء بعض المدربين والمستشارين من الجيش البريطاني). انتهى الحكم الأجنبي. سيكون على السودان الآن من أجل الحفاظ على وحدته، حل مشكلته الجنوبية من تلقاء نفسه. ما إذا كان سيتم القيام بذلك بسلام أو عن طريق الحرب أثار حماس القارة بأكملها. فما الذي سيجلبه الاستقلال إلى إحدى أوائل الدول الأفريقية لتأكيد حريتها؟

الفصل الثالث

الديمقراطية الفاشلة - الانقلابات الفاشلة

(١٩٥٦-١٩٨٩)

سنوات الاستقلال الأولى

بدأ السودان المستقل بتفاؤل كبير. كان الحزب الإتحادي الوطني بقيادة رئيس الوزراء يهيمن على الحكومة الجديدة. أصبح بمقدور الخرطوم الآن توحيد البلاد، لا سيما إنهاء الصراع في الجنوب، كما ستجلب الإصلاحات الاقتصادية الرخاء لسودان يمكن أن يكون منارة في العالم العربي وأفريقيا المتحررة من الاستعمار. ظهر نمط مماثل في العديد من الدول الأفريقية والشرق الأوسط بعد استقلالها. لقد تم طرد الطغاة الأجانب. من حيث التعريف كان من المعتقد، تقريبا، أنَّ الدول الناشئة يمكن أن تحقق إمكاناتها الحقيقية ولكن للأسف، سرعان ما تدهور الخطاب الناشئ للحرية والديمقراطية والتنمية المالية ليصبح تدخلا عسكريا وركودا اقتصاديا.

لقد واجه السودان تحديين أساسيين هما: التحديات الداخلية التي تتطلب الحكم الرشيد، والتحديات الخارجية التي تتطلب دبلوماسية سليمة. عزّز الحكم الثوري بقيادة العقيد ناصر في القاهرة موقف الجيش المصري، كما عزّز الاستبداد العسكري في جميع أنحاء الشرق الأوسط، على الرغم من أنَّ عبد الناصر قد غازل أيضا الديمقراطية متعددة الأحزاب، وكذلك الشيوعيين والإخوان المسلمين. شملت عوائقه الأولية السيد الإمبريالي الأعلى، بريطانيا. بسبب الخلافات في التمويل الأمريكي لسد أسوان المخطط ، كان جزء من انتقام عبد الناصر هو تأميم الشركة الفرنسية السابقة التي كانت تدير قناة السويس التي بنتها فرنسا. انتظرت القاهرة حتى غادرت آخر القوات البريطانية منطقة القناة قبل أشهر. صوّرت لندن ناصر على أنَّه هتلر آخر، وكانت باريس غاضبة من العون المصري للتمرد الجزائري ضد الحكم الفرنسي. قامت القوات الأنجلو- فرنسية، بالتواطؤ السري مع إسرائيل، بغزو منطقة القناة في أكتوبر١٩٥٦. كان ذلك إخفاقاً عسكرياً وسياسياً، خصوصاً عندما هدّد الأمريكيون بسحب الجنيه الإنجليزي إذا لم تتوقف لندن. لقد تم إذلال بريطانيا بينما كان يُشاد بعبد الناصر كبطل في العالم العربي. في الوقت الذي أُعلن فيه عدم الانحياز، تحوّلت مصر نحو المعسكر الشرقي في الحرب الباردة، لا سيما بسبب حاجة عبد الناصر إلى أسلحة سوفيتية. لم يستطع السودان أن يكون بمعزل عن توترات الحرب الباردة، لأسباب ليس أقلها أنَّ الخلافات مع القاهرة حول تكاليف سدود نهر النيل كانت تلعب دورا في التوترات السياسية الداخلية في الخرطوم. للأسف، وعمليا كان أي شيء يمكن أن يلعب دورا في التوترات السياسية في الخرطوم. انهارت الحكومة التي يقودها الأزهري في غضون ستة أشهر بسبب الإنشقاقات البرلمانية. باعتبار أنَّ فريق الأزهري كان من الأحزاب الأكثر

علمانية. شكلت الأحزاب الأكثر تحفظا – حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطي الجديد، حكومة تداعت طوال عامين، فقد أثبتت أنَّها غير قادره تقريباً على أي حكم بسبب المصادمات الطائفية والشجارات الشخصية البسيطة. ومما زاد من المحنة، تراجُع سعر الصادر الرئيس – القطن – حيث تُركت البلاد بمخزونات ضخمة غير مباعة من القطن ومن ثم غير قابلة للبيع والتي أوجدتها سياسة التسعير المتزمته في السودان. قدّمت الولايات المتحدة عروضا مغرية لتخفيف الأزمات الاقتصادية ولتعزيز برامج التنمية. كان حزب الأمة متحمسا لقبول المساعدات الغربية، ولكن اعتقد آخرون في الائتلاف أنَّ الولايات المتحدة، المحبطة من ميل عبد الناصر للكتلة السوفيتية، أرادت عزل السودان عن مصر والدول العربية الأخرى.على الصعيد الدولي، حاول السودان البقاء بمعزل عن خطط ناصر العظيمة من أجل الوحدة العربية. في أوائل عام ١٩٥٨، أصبحت دعوة عبد الناصر للوحدة مع سوريا حقيقة – حيث تم تشكيل الجمهورية العربية الموحدة، كما تم إحتواء اليمن أيضا في السرب. ومع ذلك، كانت القومية دائما تتخطى مثل هذا البناء الضعيف. خاصة أنَّ الجيش السورى نما ساخطا. تم حل رابطة القاهرة - دمشق باكرا في فضيحة قاسية. في بادرة مصالحة أرسل ناصر عبد الحكيم أمير، أقرب صديق له، ونائب الرئيس وقائد الجيش المصري، إلى دمشق لتسوية المظالم. على الرغم من الشعبية التي يتمتع بها الجيش السوري إلا أنَّ الوسيم هاوي النساء أمير لم يكن خبيرُ حلِّ أزماتٍ طبيعيا. وبطبيعة الحال، فقد تتبعت الاستخبارات العسكرية السورية كل حركاته وسرعان ما أدركت أنَّه كان يقضي كثيرا من الوقت يسرف في الشراب مع مغنية جزائرية بدلا عن حل المأزق السوري- المصري الحاد. وأخيراً، قام مسؤولو الاستخبارات العسكرية بإيقاظ أمير من سريره في منتصف الليل، وفي عمل متعمد من الحقد والسخرية العامة، وُضع أمير وعشيقته بملابس الليل، على متن طائرة متجهه إلى القاهرة. (يتم تسجيل ما إذا كانت المخابرات السورية خبيثة بما فيه الكفاية للقيام بترتيبات بشأن ملاقاة زوجة أمير، بيرلنتي – وهي ممثلة جميلة تشتهر بأدوارها المغرية والناريّة في الأفلام - لهم في مطار القاهرة). وسرعان ما انبعثت انتفاضة وطنية في سوريا بعد هذا الإذلال العلني وابتهج معظم السوريين بنهاية ما أطلقوا عليه "الإحتلال المصري". إنَّ تدخل عبد الناصر في اليمن - إلى جانب ٧٠٠٠٠ جندي - انتهى بشكل سيء. كما أنَّ تورطه الأحمق في الحرب الأهلية جعل إسرائيل سعيدة جداً، لكنه أفرغ الخزانة المصرية. اضطر ناصر في وقت لاحق لسحب قواته في معتكف مهين آخر. كان من المفترض أن يؤثر مثل هذا الانهيار على الزعماء السودانيين بشكل سلبي، خاصة أولئك الذين ما زالوا يعززون إعادة الإتحاد مع مصر.

الانقلاب الأوّل

كما هو الحال دائما، كانت السياسة الداخلية السودانية في حالة اضطراب. بحلول نوفمبر ١٩٥٨، فشلت السلالة الجديدة من السياسيين وبدأ الناس يتطلعون للجيش لحسم التمزقات المحلية والدولية. في صباح ١٧ نوفمبر ١٩٥٨، قبل ساعات من موعد اجتماع البرلمان الجديد، أمرالقائد العام، اللواء إبراهيم عبود، رجاله بإحتلال المدن الثلاث المركزية والمجاورة وهي شمال الخرطوم ، والعاصمة المهدية القديمة، أم درمان. ألغى عبود النقابات والأحزاب السياسية وحبس وزراء الحكومة بموجب حالة الطوارئ. على عكس عبد الناصر، لم يكن عبود شخصا سياسيا. كان لديه صورة أبوية شعبية بدون طموحات سياسية واضحة، إلا أنَّه كان يعكس الغضب العام على الطبقة السياسية المتصارعة والفاسدة. كانت البلاد بحاجة إلى أن تكون

محكومة بشكل فعّال، لكن المجلس الأعلى الجديد المكون من كبار الضباط لم يكن لديه أيديولوجية ولا خطة. وبالرغم من ذلك فقد عكس المجلس الأعلى درجة من التماسك الديني والقبلي. كان معظم الحكام العسكريين ينتسبون إلى طائفة "الختمية"، وكان معظمهم من نخبة النهريين في تحالف الشايقية والجعليين. ومع ذلك، فإن رُتب الصف والجنود كانت في الغالب من القبائل المهمشة الطرفية: النوبة والدينكا والفور والبقارة.

على الرغم من انضباطهم وأزيائهم الجميلة، فإنَّ أعضاء المجلس الأعلى لم يكونوا بمنأى عن الخلافات الشخصية. سارت قوات من المنطقة الشرقية، لم يكن قادتها قد حصلوا على مقعد في المجلس، نحو الخرطوم في مارس ١٩٥٩. حاصرت العاصمة ومقر الجنرال – الرئيس في تلك اللحظة - عبود. تم استرضاء رئيس المتمردين وتم إدخال العميد عبد الرحيم شنان، على وجه الخصوص، إلى المجلس. مع ذلك، لا يزال المنشقون يشعرون بأنَّهم ينهارون. في ٢٢ مايو، قاد العميد شنّان مسيرة أخرى في الخرطوم. هذه المرة كان لدى أعضاء المجلس الآخرين ما يكفي من الانضباط. أُلقي القبض على القادة الشرقيين وتمت محاكمتهم العسكرية بتهمة التمرد وحُكم عليهم بالإعدام، وأُعيد الجنود المنشقون إلى الثكنات. لم يكن المجلس الأعلى متأكدا من تفوق شعبيته في البلاد، وكان أكثر قلقا بشأن دعمه في هيئة الضباط المحترفين. في نوفمبر، قاد العقيد علي حميد تمرداً من الضباط المبتدئين المتطرفين بدعم من كتيبة مشاة في أم درمان. كان ذلك مختلفا. في كل تاريخ السودان،- تمرّدت المناطق الطرفية - في بعض الأحيان تقريبا بطريقة إحتفالية. يمكن توقع الاسترضاء أو العقوبة. كان التمرد في المركز أكثر خطورة بكثير. تم قمع ثورة الضباط الصغار بشكل وحشي، حيث تمت محاكمتهم بشكل موجز وشنقهم علانية. لم يكن ذلك معتادا في التقليد السوداني. على العكس من ذلك، كان السودانيون دائماً ما يفتخرون بالثورات غير الدموية مما جعلها أسطورة شائعة، مليئة بكثير من العطف، وعدم الدقة التاريخية، حتى اليوم.

لقد أسس العامان ١٩٥٨ و ١٩٥٩ نمطًا وهو أنَّه: سيتم استبدال مجموعة من السياسيين غير الأكفاء بمسؤولين عسكريين أقل كفاءة بقليل، وذلك من خلال انقلاب عسكري، يليه محاولة انقلاب أخرى أو حتى اثنتين. لقد وعدت أوائل الانقلابات بالكثير. بعد كل ذلك، حان وقت الانقلابات في دول المسلمين - في باكستان والعراق ومصر. كان مثال مصر مؤثراً بشكل خاص على الأحداث في السودان. كان الأسلوب - من الناحية المثالية ومبدئيا بدون إراقة دماء - هو تعيين شخصية صورية شعبية، وكان عبد الناصر قد استخدم الجنرال نجيب المحترم، وبالمثل كان المتآمرون السودانيون يستعرضون الشخصية الأبوية للزعيم عبود. للأسف، سرعان ما علّمت السودان مصر شيئاً أو اثنين حول كيفية تنظيم الانقلاب أو عدمه.

كان الرئيس عبود أميناً جداً لكونه سياسيا فقد صدّق وعود عبد الناصر حول سد أسوان وكان يعتقد أنَّ ما بينهم على أساس"جندي إلى جندي". في عام ١٩٦٠ بدأ بناء السد العالي الذي طال أمده في أسوان (وبدأ السودانيون في إنشاء سدود أصغر). أنتج السد المصري على الفور مجموعة كبيرة من النازحين والسكان النوبيين الساخطين الذين اضطروا إلى مغادرة أراضي أجدادهم، وفي نهاية المطاف، بعد عقود من الزمان، خلق كمية لا تحصى من الرسوبيات الأثيوبية التي جعلت المشروع غير عملي على أي حال. كان النوبيون الذين تم ترحيلهم مجرد عنصر واحد من الاستياء الوطني الفوري. في غياب الأحزاب السياسية القانونية، احتشد قادة النقابات وطلاب الجامعات للحزب الشيوعي السري، الذي كان الحزب السياسي الوحيد الذي يعارض الانقلاب العسكري. كما تطورت جماعة الإخوان المسلمين، التي تأسست في مصر

عام ١٩٢٨، بشكل قليل ولكن التأثير طال السودان، فجاء الإخوة السودانيون- كما في مصر- ليعتبروا الحكم العسكري غير إسلامي بشكل كامل.

كونهم عمليون وإن كانوا جاهلين اقتصاديا، فقد كان لدى الرجال - المسؤولين الحكام - الفطرة السليمة للتخلي عن سياسة التسعيرغير المعقولة للائتلاف السابق، وسرعان ما اختفى الجبل القطني. كما كانوا مستعدون أيضا لقبول المساعدات المالية من الشرق والغرب. لقد جلبت الكهرباء وخط السكة الحديدية التي امتدت من كردفان إلى واو- وهو أول خط سكة حديدية حديث يمتد من الشمال إلى الجنوب - للخرطوم تقدما اقتصاديا. إلا أنَّ الإنفاق البذخي على مشاريع الحيوانات الأليفة وسوء المحاسبة والفساد سرعان ما لوّث سمعة الجيش فيما يتعلق بما يمكنه القيام به. في أكتوبر ١٩٦١، قام الجنرال عبود بزيارة رسمية إلى واشنطن، حيث رحب به الرئيس جون كنيدي بحرارة. كان الرئيس الديمقراطي الشاب معجبا بالرجل العسكري الذي قلب النظام الديمقراطي البدائي في السودان. تحدّث كنيدي مع عبود "كقدوة" لجيران السودان المباشرين. وذهب إلى أبعد من ذلك ، بقوله أنَّ السودان "وضع معيارا للقارة". نادرا ما يُثني الرؤساء الأميركيون على زعماء المجالس العسكرية المستقبلية، لكنهم فعلوا ذلك أحيانا عندما تطلبت المنافسة في الحرب الباردة ذلك.

أقام الجيش نظاما من المجالس الإقليمية والحضرية يرفع تقاريره إلى مجلس مركزي في الخرطوم ، لكنه كان مجرد مجلس شكلي للنظام وليس للديمقراطية. أعطت هذه الإصلاحات المتواضعة مزيد من القوة للمحافظين في المناطق الريفية على حساب الرأي المدني الأكثر علمانية. لم يفعل الجيش الحاكم سوى القليل نسبيا لتحسين السياسة في الشمال، بل أنَّه لم يفعل شيئا لحل"المشكلة الجنوبية". بما أنَّ الجيش كان المؤسسة الوطنية الوحيدة الفعّالة نسبياً، فقد افترض المجلس الأعلى أنَّ حملة القمع ذات القبضة الحديدية في أعقاب تمرد عام ١٩٥٥ واستمرار التعريب من شأنه أن يحل المسألة. إنَّ الوعود الفيدرالية الكاذبة واستمرار التمييز أدّى إلى تفاقم الاختلافات عميقة الجذور في الوقت الذي دفع فيه القمع إلى المقاومة السرية. ذهب بعض من المتمردين الناجين عام ١٩٥٥ إلى الأدغال، على الرغم من أنَّ معارضتهم المسلحة كانت أكبر بقليل من اللصوصية. كان يمكن للجيش التعامل مع هذا بطريقة تقليدية، ولكن بعد ذلك تولّت وزارة التربية والتعليم في الخرطوم إدارة المدارس التبشيرية ودمجتها في مناهج إسلامية وطنية، حيث اصبح يتم تعلم اللغة العربية جنبا إلى جنب مع الإنجليزية. تعرّض المدرسون التبشيريون الباقون للمضايقة ثم طُردوا. وأُغلقت المدارس الثانوية في رومبيك وجوبا، حيث تلقى الكثير من النخبة الجنوبية تعليمهم، بعد إضراب ضد السياسة الشمالية شديدة القسوة. إنضم العديد من الطلاب والمعلمين إلى الآلاف من زملائهم اللاجئين في أوغندا أو زائير. في عام ١٩٦٣، تم تشكيل الاتحاد الوطني الأفريقي السوداني (*SANU*) في كمبالا. وقد نشأت مجموعات صغيرة من الجنوب السوداني في لندن والخرطوم، لكن المقاومة السياسية الجنوبية الفعّالة داخل السودان كانت قليلة.

كان الأمر الأكثر وعدا للقتال الجنوبي هو قيام سكان اللاتوكا الأصليين بإنشاء قاعدة حرب عصابات صغيرة، وهي معسكر أغو، في أقصى شرق الإستوائية، حيث بدأ بضع مئات من الرجال، بقيادة إيميديو تافينج أودونجي، وهو ملازم سابق في الفرقة الاستوائية بالتدريب. وقد قاموا بشن غارات على المواقع الحكومية المعزولة.

تدريجيا، وضعت المقاومة قواعد أخرى في الغابات والأدغال على طول الحدود مع أوغندا وزائير (الآن جمهورية الكونغو الديموقراطية). حاولت مجموعة صغيرة من كهنة ومعلمي

اللاتوكا في المنفى في كمبالا تشكيل قيادة سياسية لمعارك متفرقة في جنوب السودان. كان القائد الأبرز هو الأب ساتورنينو لوهور، الذي كان يمثل توريت في الجمعية التأسيسية، لكنه كان قد هرب إلى أوغندا بعد انقلاب عام ١٩٥٨. كانوا بحاجة لاسم سياسي حيث كان الإتحاد الوطني الافريقي السوداني *(SNAU)* قد فقد مصداقيته، وأصبح أقل حركة وأكثر إشارة إلى المجموعات الأفريقية البارزة الأخرى مثل زانو روديسيان *(Rhodesian ZANU)* (الاتحاد الوطني الإفريقي الزيمبابوي الروديسي). مثل *(ZANU)* والعديد من الجماعات المناهضة للاستعمار، عانى المنشقون السودانيون الجنوبيون من الخصومات القبلية التي ولّدت الكثير من التنظيمات المتنافسة الصغيرة. في البداية لعب الجنوبيون في كمبالا دورا بالعديد من الألقاب مع *'Azanian '* التي كانت مدرجة في حركاتهم المفترضة، من أجل الحصول على الدعم من تنظيم الوحدة الأفريقية وغيرها من الرعاة الماليين والعسكريين المحتملين. استقروا في نهاية المطاف على اسم أفريقي تقليدي، على غرار ماو ماو في كينيا فاتفقوا على أنيا- نايا. كان معنى هذا مزيجًا من الكلمة المحلية للسم القاتل المستخرج من ثعبان النهر واسم جيش النمل الإستوائي.

كانت غارات أنيا-نيا الأولى في الإستوائية على نطاق صغير. لكن التمرد امتد إلى بحر الغزال. في يناير ١٩٦٤، أرسل القائد ويليام دينق نيال، وهو من الدينكا، أحد مساعديه لمهاجمة واو، عاصمة المقاطعة، حيث قُتل أكثر من اثني عشر من جنود الحكومة وتم الإستيلاء على مخزن أسلحة آلية. كان هذا أول هجوم كبير وهو ما يطلق عليه الجنوبيون "الحرب الأولى لاستقلال الجنوب". بحلول منتصف عام ١٩٦٤، كان عدد المتمردين ربما يصل إلى ٤٠٠٠، ولكن لم يكن لديهم هيكل القيادة والسيطرة المركزية. كما لم تكن لديهم جبهة سياسية موحدة. في منتصف أكتوبر ١٩٦٤، اجتمع العديد من قادة العصابات الطموحين في فندق الربيع الفضي في كمبالا مما نتج عنه حتما الانسحاب من "الإتفاقية الوطنية". كما كانت إحدى النتائج هي ظهور أقري جادن كقائد. كان أقري موظفاً حكومياً سابقاً من جماعة بوغولو العرقية التي سبق لها أن ترأست الإتحاد الوطني الأفريقي السوداني غير الفعّال. من الناحية النظرية، كان يرأس فرعا سياسيا واحدا في أنيا- نيا، لكنه عيّن "العقيد" جوزيف لاغو كأول قائد عسكري عام للمقاومة المسلحة. كان لاغو، من مادالاند، جنوب جوبا، وكان قد إنشق عن الجيش الحكومي في عام ١٩٦٣. كان له دورا بارزا في حرب الجنوب، لا سيما تشجيعه وخلقه لمهنة أكثر القادة الجنوبيين كارزمية، جون قرنق، الذي خدم (لفترة وجيزة) تحت قيادة لاغو في الحرب الأولى، والتي تسمى أيضا "حرب السبعة عشر عاما" (١٩٥٥-٧٢).

كانت عنصرية انقسام الشمال والجنوب متأصلة. وكان يشير العرب الشماليون بإذدراء إلى الجنوبيون باسم عبيد (*slaves*)، في حين أنَّ الجنوبيين غالبا ما يطلقون إسم مندكورو- تجار الرقيق- على العرب. لم يكن متمردو الجنوب يشكلون تهديدا عسكريا حتى الآن، بالنسبة للقادة في الخرطوم، لكنهم كانوا يشكلون إحراجا سياسيا. سمح الجيش على مضض بمناقشة طلاب جامعة الخرطوم حول "مسألة الجنوب". خرجت الأمورعن السيطرة ، وعندها حظرت السلطات مزيد من المحادثات العامة. وكما هو متوقع، فقد واصل الطلاب في ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ محادثات أخرى، فكانت المواجهة مع الشرطة مؤكدة وقُتل طالب. في موكب الجنازة بدأ عشرات الآلاف من المتظاهرين، وكثير منهم كانوا يرتدون العباءات الجامعية، يهتفون بشعارات مناهضة للحكومة. تبع ذلك أعمال شغب في جميع أنحاء العاصمة حيث كافح الجيش

والشرطة من أجل إحتواءها. وتبع ذلك إضراب عام، بينما بدأ القادة السياسيون المحظورون مندهشون من قيام ثورة شعبية لم يلعبوا فيها أي دور تقريباً. تم تقسيم المجلس الأعلى - كان الضباط الأصغر سنا أكثر تعاطفا مع السخط الشعبي، في حين اختار الضباط الأكبر سنا الدبابات بدلا عن المحادثات.

<u>تسليم السلطة إلى السياسيين المدنيين مرة أخرى</u>

كان الرئيس عبود، وفقا لما يؤمن به، مترددا في استخدام القوة ضد مواطنيه المدنيين، وكان قد وعد بإعادة البلاد إلى الحكم المدني. في ٢٦ أكتوبر أعلن عن نهاية المجلس الأعلى وبالتالي إنهاء الحكم العسكري. اندلع سكان الخرطوم في فرحة احتفالية شهدت فيها العاصمة المحتشمة عادة رجالا يرقصون حرفياً في الشوارع. دخلت ثورة أكتوبر التاريخ العربي كتدخل آخر غير دموي. في الواقع، تم بالفعل قتل العشرات من الطلاب والمتظاهرين الآخرين من قبل الشرطة والجيش في الأسبوع السابق.

تنحى عبود بعد تسليمه البلاد إلى حكومة انتقالية يرأسها تربوي محترم، هو سر الختم خليفة. كان عدد قليل جدا من قادة الخرطوم يمتلكون خبرة مدنية حقيقية للجنوب، فالرجال الذين يرتدون الزي العسكري كانت معرفتهم محصورة فقط في حفظ النظام. ومع ذلك، فقد عمل رئيس الوزراء الجديد على نطاق واسع في المدارس هناك، فقام بضم اثنين من الجنوبيين في حكومته، بالإضافة إلى مزيج متوازن من الشيوعيين، والإخوان المسلمين وممثلي الأحزاب السياسية الرئيسية الأخرى. تقاعد عبود بهدوء إلى الحياة المدنية دون أي مساءلة قانونية على انقلابه. في اليوم التالي بعد تنحيه، كان يهتف في السوق وهو يقوم بالتسوق للطعام الخاص به. إنَّ تردده في استخدام العنف ضد المدنيين وتسليمه للسياسيين قد يدين بشيء لخدمته الطويلة في ومع الجيش البريطاني. كان قد تعلم من البريطانيين أنَّ السياسيين يجب أن يكونوا مسؤولين – لا الجنود، بغض النظر عن قلة احترام الجيش للأنانية والنزاعات قصيرة الأجل لسادتهم السياسيين. استقر عبود لفترة في إنجلترا، لكنه توفي في الخرطوم، عن عمر بلغ ٨٢ عامًا، في عام ١٩٨٣.

ترك عبود حكومة مدنية كانت أكثر خللاً من سابقتها. خلال الحكم العسكري تفككت الأحزاب التقليدية، لكن الحزب الشيوعي والإخوة المسلمون ساعدوا في ملء الفراغ السياسي من خلال التنظيم الدقيق السري. كان الشيوعيون أيضا ناشطون في الحكومة الجديدة مما أزعج الإسلاميين. تم تعيين رئيس بمهارات حيوية في مجلس الدولة الجديد للحكومة الانتقالية. كان التيجاني الماحي طبيبا وكان أول سوداني يتخصص في الطب النفسي. فوق ذلك، يستطيع حتى طبيب نفسي مؤهل تأهيلا عاليا أن ينظم بشكل فعّال السلوك العقلي المدمر للذات والعنف العقلي للقادة السياسيين المدنيين. استدعى حزب الأمة عشرات الآلاف من الأنصار ليهتفوا بصرخات الحرب المهدية في شوارع الخرطوم. وبصعوبة شديدة، انهارت الحكومة في فبراير ١٩٥٦، وسيطر الحزب الوطني الإتحادي، وحزب الأمة، والجبهة السياسية للإخوان على المجلس الجديد. تخبط تحالف الأحزاب القديمة والجديدة في ضباب غامض من الفظاظة والقبلية وعدم

الكفاءة الملحوظة على مدى السنوات الأربع المقبلة. مثل البربونات، يبدو أنَّ الأحزاب السودانية لم تنس شيئاً ولم تتعلم شيئاً.

استمرت المسألة الجنوبية في التفاقم، ففي ٦ ديسمبر ١٩٦٤، اجتمع آلاف من الجنوبيين في الخرطوم للترحيب بعودة كليمنت مبورو الذي يشار إليه عالميا في الجنوب باسم "العم كليمنت" بسبب شعبيته الحقيقية، فقد عمل كخادم مقيم في السيادة في الجنوب، ثم أصبح أول مواطن جنوبي يشغل منصبا مهما في الحكومة بالخرطوم. كان قد قام برحلة إلى الجنوب لكن سرعان ما انتشرت الشائعات بأنَّه قد تم اغتياله. دخل الجنوبيون في حالة هياج جعلتهم يقتلون أي عربي شمالي يصادفونه. قُتل ما يقرب من مئة من الشماليين في ما كان يطلق عليه "الأحد الأسود". منذ ذلك اليوم ، وفي أي بادرة تمرد جنوبية في المدينة، يصل العرب في الخرطوم إلى أسلحتهم ويحرسون ديارهم، فقط في حالة عدم تواجد الشرطة والجيش في العمل. استعاد الجيش النظام في مساء يوم الأحد الأسود. توصل بعض المثقفين الشماليين إلى استنتاج مفاده أنَّ الجنوب لا يمكن ارضائه وأنَّه يجب أن يُسمح له بالذهاب في طريقه الخاص. لكن الأغلبية كانت تفضل مزيد من القمع، أو ربما السلام، أولاً. وأخيرا انعقد مؤتمر المائدة المستديرة في الخرطوم في مارس ١٩٦٥. وثبت أنَّ ممثلي الجنوب قد أصبحوا مشتتين مثل مواطنيهم الشماليين. على سبيل المثال، كان لـلإتحاد الوطني الافريقي وفدان متنافسان هما الموالين للداخل "*Inside*" والموالين للخارج "*Out*"، يصفان أولئك الذين يعيشون في المنفى أوالذين يعملون داخل البلد. كما ظهر حزبان- هما جبهة التحرير الأزانية وجبهة التحرير الأفريقية السودانية، اللتان كانتا تطالبان بلا هوادة بالمقارنة بحركات (مونتي باثيون) من جبهات التحرير اليهودية العديدة في زمن السيد المسيح. وربما كانت المسألة مهزلة مضحكة اذا لم تكن العواقب مسأوية . وقد كان هناك بعض القادة مثل الأب ساتورنينو وكذلك السياسي القدير كلمنت أمبورو والذي لم يقتل في الأحد الأسود ولكن تأجل مقتله. قاد كلمنت أمبورو الجبهة الجنوبية المكوّنة من الجنوبيين المثقفين المقيمين في الخرطوم. كما شملت الحكومة مجموعة تسمى رسميا ب (أطياف الرأي الأخرى) والتي يعتبرها معظم الجنوبيين أضحوكة. دأب الشماليون ولخمسين عاما على ممارسة التكتيكات القائمة على التعاون مع العدو. تم تقسيم الوفود وفقا لطبقاتهم ومستواهم التعليمي وأفكارهم وبالطبع وفقا لقبائلهم. ومن المسائل التي اختلفوا حولها بصورة واضحة هي ما اذا كان على الجنوب أن ينفصل أو أن يخلق نظاما إتحاديا (فدراليا). بصورة خاصة قام بعض الجنوبيين بالنظر بعمق في أفضل سبل الكفاح المسلح في حال فشل محادثات السلام.

حضرت كل الأحزاب الشمالية. بالإضافة إلى ذلك، جاء المندوبون من الدول الأفريقية المجاورة. كان الشماليون قادرون على التلاعب بالجنوبيين الممزقين بشكل مزمن. عندما رفض جميع ممثلي الحزب الشمالي استقلال الجنوب، انتقل أقري جادين إلى كمبالا في نوبة من السخط، مما أدّى إلى إبعاد الإتحاد الوطني الأفريقي السوداني الموالي للخارج *(Outside)* عن اللعبة والسماح لواحد من منافسيه الرئيسيين- الجبهة الجنوبية، بالتحرك للأمام.

فشل المؤتمر في الوصول إلى أي توافق في الآراء. ربما كانت هذه الفرصة الأخيرة للسلام، ووحدة أكبر دولة في أفريقيا. تم تكوين لجنة من ١٢عضو، ستة من الشمال وستة من الجنوب، شكّلت مجموعة عمل لمحاولة التوصل إلى اتفاق، وترأسها محامٍ لامع من جماعة الإخوان المسلمين الذين سيصبحون من صميم السياسة الإسلامية السودانيةً بعد ١٩٨٩: الدكتور حسن الترابي. لقد كان الترابي رجلاً قاسياً، ولكنه ساحر، يمكنه، من الناحية الفكرية، أن يدير حلقات

حول كل سياسي من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب. ويمكن للترابي إنجاز ذلك بسهولة باللغة الفرنسية أو الإنجليزية كما هو الحال في اللغة العربية. كان المحامي أيضا عالما إسلاميا يؤمن بتطبيع أسلمة الجنوب وليس فصله. لما كان لا بد من الإتفاق على أي اقتراح بالإجماع فقد استخدم حق النقض لضمان عدم حصول الجنوبيين على طريقهم. أراد الجنوبيون ضمان بقاء الجنوب في وحدة إدارية واحدة، لكن الشماليون اعتبروه خطوة نحو الاستقلال. أراد الشماليون بلقنة الإدارة الجنوبية، كما أراد الجنوبيون أيضا وجود ميليشيا موالية للإدارة المحلية في الجنوب. الأمر الأكثر إحباطا، أنَّ الجنوبيين استسلموا في نهاية المطاف. وقد خلُص معظمهم إلى أنَّ الشمال سوف ينتبه إلى مظالمهم من خلال الكفاح المسلح. في إنتخابات عام ١٩٦٥، ظهرت شقوق أخرى في الجسد السياسي للسودان حيث فاز مؤتمر البجا بعشرة مقاعد. تم إنشاء المؤتمر الذي عُقد في عام ١٩٥٧، لمواجهة الانفلات الذي شُعر به في شرق البلاد. كانوا ملتزمين بالنظام الفيدرالي. كذلك تم الاستيلاء على سبعة مقاعد من قبل المستقلين في جبال النوبة. تمثل كلتا المجموعتين السياسيتين الغضب الذي تشعر به الجماعات المُهمّشة.

تحولت رئاسة الوزراء أربع مرات في سنوات عديدة على غرار دوران النمط الإيطالي تقريبا. في البداية، قاد محمد أحمد المحجوب، وهو سياسي بارع وذكي، تحالف حزبي الأمة والإتحادي الوطني اللذان لم يتعلمان شيئاً من المحاولة الجنوبية الأخيرة للتفاوض بشأن حل سلمي. كثّف رئيس الوزراء الجديد سياسة عبود للتعريب في الجنوب. بدأ الجيش في العمل ضد المعارضين السياسيين وسط النخبة المتعلمة الصغيرة. في يوليو ١٩٦٥، تجادل جندي ومواطن محلي حول امرأة في جوبا وفي معركة أعقبت ذلك، قُتل الجندي. في ٨ يوليو، أعطى الضباط في حامية جوبا الإشارة لقواتهم بالثورة في العاصمة الجنوبية للثأر، حيث قُتل مئات من الجنوبيين ودُمرت البلدة. بعد أربعة أيام دخل جنود من حامية واو في موجة من القتل في حفل زفاف وقتلوا أكثر من سبعين من الجنوبيين الطيبين الذين حضروا الاحتفال.

اندلعت موجة جديدة من الهاربين إلى مخيمات اللاجئين عبر الحدود، لكن بعض الجنوبيين الغاضبين الآخرين عززوا عدد الرجال المقاتلين في معسكرات "أنيا-نيا" المتناثرة، التي حصلت مؤخراً على أسلحة زودها بها متمردو سيمبا الفارين من الحرب في الكونغو المجاورة. وفي مواجهة مرحلة جديدة من المقاومة المسلحة، اختار الجيش طريقة مجربة ومختبرة لعزل المتمردين عن دعمهم الريفي. أقام السودانيون "قرى السلام"، فيما أطلق عليها الأمريكيون "قرى إستراتيجية" في فيتنام بينما كان يطلق عليها البريطانيون اسم "معسكرات الاعتقال" خلال حرب البوير، وعلى الرغم من الضجة التي أحدثتها إلا أنَّهم قد استخدموها مرة أخرى في مالايا. كانت هذه طريقة شائعة لاستنزاف البحر الماوي من إمدادات الفلاحين والدعم. تم تجميع سكان الريف من الاستوائية في ثلاث وثلاثين من القرى الجماعية. مات المئات منهم بسبب سوء التغذية والمرض. كان هذا أسلوبا متطرفا لمكافحة التمرد، جزئيا لأنَّ الاستوائية في أقصى الجنوب كانت متاخمة لملاذات حرب العصابات المجاورة في أوغندا والكونغو. أنشأ الجيش ميليشيات قبلية على طول "الحدود" بين الشمال والجنوب تدعمها الحكومة لتعزيز النزاعات التي دامت قرونا حول الأرض والماء وحقوق الرعي. في بعض الأحيان كان يتم تشجيع القبائل المتمركزة في الشمال على مداهمة الجنوب أوالخرطوم. كان مبدأ التقسيم هو تسليح ورشوة القادة القبليين الجنوبيين. أصبحت سياسة إنشاء الميليشيات القبلية غير النظامية دُعامة أساسية لمكافحة التمرد الشمالي في العقود الخمسة القادمة. في مواجهة سياسة الاحتواء الجديدة، فشل السياسيون الجنوبيون في التنسيق بشكل صحيح. إشتد عود "الأولاد في الأدغال" مما جعلهم يزدرون المتفاوضون في العواصم المريحة مثل كمبالا بينما كانوا يقاتلون بقوة على

الأرض. في مرحلة ما، أصرّ بعض القادة على استخدام قواتهم للغاتهم المحلية وليس اللغة الإنجليزية كلغة للقيادة والتواصل. كان يُنظر للغة الإنجليزية منذ فترة على أنَّها رمز لمقاومة الاستخدام القسري للغة العربية. كانت هذه الخطوة من قبل بعض قادة أنيا-نيا بمثابة رفض متعمد للقادة الفاشلين في الخارج. ردا على ذلك، انعقد أول تجمع كبير، "المؤتمر الوطني" داخل الجنوب، في أنغندري، على بعد ثلاثين ميلا جنوب غرب جوبا في عام ١٩٦٧. هناك، أعلن قادة مثل أقري جادن "الحكومة المؤقتة لجنوب السودان". كانت هذه أول محاولة حقيقية لتشكيل جبهة موحدة للمتمردين والسياسيين داخل البلاد. بطبيعة الحال، لم تضم هذه المرحلة الجديدة جميع الأحزاب الجنوبية الممزقة وكذلك لم تسيطر الحكومة المؤقتة إلا على جزء صغير من وسط الاستوائية - عندما لم يكن الجيش موجودا. لكنها نشرت نشرات إخبارية لحشد المخلصين وإقامة محطات إذاعية في وقت لاحق. لقد انهارت الحكومة المؤقتة عندما قام رئيسها، أقري جادن، الذي كان نشطا ولكنه غير منظم، بتفكيكها فجأة في ملاهي نيروبي. مرة أخرى، أفسدت زعزعة القيادة محاولات التأتأة في الوحدة الجنوبية. إنَّ معظم حركات التمرد تنجح عندما يرأسها زعيم واحد يتمتع بشخصية كاريزمية، لكن الأمر سيستغرق عقودا من الزمان حتى يظهر هذا النوع من القيادة بين الجنوبيين. أُحبط أقري من مواجهات الإستوائيين الذين استاءوا من التدخل العنيف لقبيلة الدينكا الأكثر سكاناً وولعا بالحرب. كانت القبلية والانتقام من الجيش والتحديات اللوجستية الهائلة قد دمرت الحكومة الناشئة بنفس القدر الذي دمرته بها القيادة السيئة.

ومرة أخرى إلى الخرطوم، كانت البقايا السياسية الجنوبية لمؤتمر المائدة المستديرة لا تزال موجودة، على الرغم من المضايقات القانونية المتقطعة. الأمرالأكثر أهمية، أنَّ الجبهة الجنوبية بقيادة كليمنت مبورو و*(SANU-Inside(* بقيادة وليام دنق، كانت تتنازع بقدر تعاونها. كان يجب عليهم على أسوأ الفروض التحدث إلى السياسيين في الشمال. وقد لعب هذا دورا في الاتفاق الشامل الذي تم التوصل إليه أخيرا في عام ١٩٧٢. وفي أثناء ذلك، استمر الجناح المسلّح في القتال، بينما كان يناشد القادة على العمل سويا. هؤلاء القادة أنفسهم لم يتمكنوا حتى من الإتفاق على الاسم الذي سيطلقونه على دولتهم المستقبلية المستقلة. يعتقد الكثيرون أنَّ 'جنوب السودان' هو تركة إرثية ومجرد بنية جغرافية. في مارس ١٩٦٩، تم إنشاء "حكومة النيل المؤقتة"، على الأقل بالاسم. وقادها غوردون مورتيات ماين موبورجوق، الذي عمل ضابط شرطة من ذوي الرتب المتوسطة والذي إنشق لاحقاً منضما إلى الثوار وكان أحد القلة من القوميين الأوائل الذين وصلوا فعلا إلى الأرض الموعودة من خلال الخدمة في الحكومة الفيدرالية لما بعد عام ٢٠٠٥.

كان ذلك تحت قيادة موبورجوق عندما دخل الإسرائيليون في النزاع، حين ذهبت مجموعة صغيرة من أنيا- نيا إلى إسرائيل بغرض التدريب وتدخل مستشارو إسرائيل في أقصى الجنوب من حين لآخر.

استمر فشل القيادة يصيب الشمال بقدر إصابته الجنوب. في يوليو ١٩٦٦، أصبح الصادق المهدي رئيسا للوزراء، وبدا لكثير من المثقفين العلمانيين المتحضرين والمحافظين المتدينين على حد سواء (أنَّه يأتي الرجال حينما تحين ساعتهم). كان شابا (٣١ عاما)، وهوالحفيد الأكبر للمهدي، كان مؤلفا وإماما للأنصار وخريج أوكسفورد. وعلاوة على ذلك، كان حاسما، ولديه رؤية وطنية تجاوزت جميع التحيزات المنهكة. حول حزب الأمة من بقايا دينية إلى آلة سياسية حديثة، وكان من الأمور المشجعة أنَّه عيَّن وزراء أصغر سنا على أساس الكفاءة وليس لمجرد

الموازنة بين الحزب أو التذكرة القبلية. لقد وجد بعض القادة الجنوبيين أرضية للتفاؤل في ائتلاف المهدي. أراد المهدي التخلص من الدستور الانتقالي المتداعي الذي أعقب نهاية الحكم العسكري، في محاولة منه لتحقيق التوازن بين الإسلام مع التوجه العلماني لوضع دستور جديد، ولكن إنشق حزب الأمة. رغم كل الوعود، سقطت حكومة المهدي بعد أشهر. وظهر تحالف جديد مؤقت، قاده مرة أخرى محمد أحمد المحجوب، وسرعان ما غرق في المشاعر القبلية والطائفية. انتشرت الشائعات بشأن انقلاب عسكري آخر.

لقد عارض الصادق المهدي الجولة الأولى من التدخل العسكري في عام ١٩٥٨. كان تخرج عمر البشير، وهو ضابط شاب، من أكاديمية الخرطوم العسكرية في ديسمبر ١٩٦٦، خلال ذروة المهدي وصعوده المختصر والسريع إلى السلطة بمثابة مواجهة تاريخية مثيرة للاهتمام. في سنوات لاحقة، تحدثت مع كلا الزعيمين بإسهاب. لا يزال المهدي مميزا بجدله الفكري بلغة إنجليزية مثالية تمامًا، وبقامته الجسمانية وسلوكه ولحيته المنحوتة التي تشبه عصر الفاتحين العرب العظماء. ومع ذلك، فقد أصبح قوة مستنفذة، فقد طغى على الوعد السياسي المبكر تردده الخاص والتداخل المطلق لمشاكل السودان الكثيرة. كان من الواضح أنَّ الرجل الذي أطاح به - عمر البشير - كان رجلا عمليا أكثر، وضابطا واقعيا وشعبيا يستطيع الوصول إلى ما وراء النخب الدينية ليلامس الانسان العادي- وإن كان ذلك في الشمال فقط. كان كلا الرجلين خصمين رئيسيين في قمة يو – يو عام ١٩٨٩ من الحكم العسكري والمدني.

ومع ذلك، فإنَّ نقطة الانقلاب لا تزال قادمة، ففي مايو ١٩٦٧، عاد محمد أحمد المحجوب غير الفعّال كرئيس للوزراء، مدعوما من حزب الأمة الذي هجر الصادق لصالح إمام آخر كان من أقارب خليفة المهدي، الخليفة عبدالله. كانت معركة الخلافة الأصلية قد خِيضت قبل ثمانين عاما، وهي مثال كلاسيكي لاستيعاب القادة السودانيين للنضالات الماضية. كان حزب الأمة (وأجنحته المختلفة) والحزب الإتحادي الوطني يسيطران على السياسة الحزبية، وكلاهما كانا حركات إقطاعية عفا عليها الزمن. نبع نفوذ المهدي من صلته بالثورة المهدية الأصلية، وكان جزء كبير من قاعدة سلطة الحزب في الغرب. أصبح الأمر شاغلا عائليا حصريا، مستندا إلى مبادئ وراثية. وبالمثل، كان نفوذهم كبيرا في الشرق. إحتلت هاتان السلالتان السياسيتان وحلفاؤهما الدينيون مركز الصدارة، في حين كان يُدفع بالشيوعيين والإخوة عادة إلى الأجنحة. غطرسة رئيس الوزراء دفعته إلى تجاهل السياسة الداخلية على أنَّها أدنى مرتبة منه. وكان المحجوب قد حصل على أوسمة سابقة كوزير للخارجية. ففضّل أن ينغمس في التدخلات الدولية التي كان بعضها مبرراً: مثل مواجهة حكومة "ديرغ" الشيوعية في أديس أبابا التي كانت تسلح "أنيا-نيا". بدأ التدخل في أريتريا، وتشاد، وجمهورية أفريقيا الوسطى والكنغو أقل إلحاحا. أزعج تسليح الخرطوم للمتمردين في الكونغو أحد ملاذات أنيا-نيا الجنوبية في الحادثة الأخيرة. في السنوات التالية، أصبح دعم المتمردين مثل مقاومة جيش الرب في أوغندا وزنا مضادا مناسبا لإستراتيجية الخرطوم الجنوبية المتعثرة. على المدى الطويل، تم تقويض احتجاج الخرطوم حول تدخل جيرانها عبر الحدود داخل السودان. وقد ساعد المحجوب في تحديد هذا النمط.

إذا كانت الخرطوم مفرطة النشاط في التدخل الأجنبي، فإنَّ تعاملها مع القضايا الاقتصادية كان غائباً. سمح الإهمال الحميد للسيطرة القبلية والأسرية التقليدية للتجارة النهرية أن تزدهر،لكن السودان كان بحاجة إلى استثمار أجنبي كبير، لا سيما لتلبية متطلبات الشعوب المهمشة في الشرق والغرب. إنَّ النمو الاقتصادي البطئ وعدم الاستقرار السياسي والحرب الأهلية لا يشجع الكثير من الاستثمارات الأجنبية. ما هي الخطط التي كانت تعتمد على تأميم مشروعات القطن

الخاصة التي تزيد من إعاقة الأموال الأجنبية؟. كما زادت البنية العتيقة وغير العادلة إلى حد كبير الدين الوطني بالإضافة إلى الاقتراض المتهور بعامل قدره عشرة في السنوات الأربع من الحكم المدني المشدّد. بدت أحداث ٢٥ مايو ١٩٦٩ حتمية للجميع باستثناء أعضاء الجمعية التأسيسية الذين كانوا منغمسين تماما في الطعن المتبادل. أمرالعقيد جعفر النميري وحركته من الضباط الأحرار الجيش بالاستيلاء على المنشآت الرئيسية في المدن الثلاث في العاصمة. قاد الانقلاب حفنة من الضباط حوالي ٥٠٠ رجل، الذين كان بعضهم مجرد طلاب عسكريين - على الرغم من مشاركة سريتين من المظليين الأقوياء أيضا. تماما كما حدث في انقلاب العقيد عمر البشير عام ١٩٨٩، اختلف المتآمرون في عام ١٩٦٩ حول توقيتهم، ولذا فقد تقدم عدد قليل فقط من أتباع نميري المصممين إلى الأمام. تحت جنح الظلام، استولت أحد الكتائب المدرعة على الجسور الرئيسية ومركز البث.

كما استولت كتيبة أخرى على مقر الجيش وتم اعتقال كبار القادة والسياسيين . تم القيام بذلك بكفاءة ودون سفك دماء. كانت ثورة نميري السلمية قد صُمِّمت بوعي على غرار الانقلاب المصري عام ١٩٥٢ من قبل لجنة الضباط الأحرار، التي أعلنت الاشتراكية العربية العلمانية. لم يبد أحد، ولا حتى المحافظين المتدينين، حدادا على الإنهاء المفاجئ للجولة الثانية من الحكم المدني في السودان.

دائما ما كان يعلق زوار السودان على كرم الضيافة ودفء الشماليين. كان الصادق المهدي، الذي كان في يوم من الأيام أحد القادة الواعدين، مضيفا عظيما تماما، مثله مثل حسن الترابي، وهو زعيم دمج آخر، أتحدث عن ذلك بصفة شخصية كضيف نزل ببيتي كلا الرجلين (والعديد من السياسيين السودانيين الآخرين). حتى وقت متأخر من الستينات، لم يكن بمقدور أي زعيم أن يتسلل من مستنقع الطمع القبيح الأناني، أو عندما فعل عدد قليل منهم ذلك، لم يقوموا باعتناق رؤية للبلاد بأسرها. كان السودانيون ينظرون إلى "الرجال الكبار" في السياسة العربية، مثل ناصر، وكانوا يتساءلون عما إذا كان بإمكانهم القيام بعمل أفضل. لقد تأثر عبد الناصر بهزيمته الساحقة من قبل الإسرائيليين في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. تفاؤلا من أي وقت مضى، أعربت النخبة بالخرطوم عن أملها في أن يقود النميري، الجندي السياسي على عكس عبود الإجتماعي وغير السياسي، من الجبهة ، وقبل كل شيء، إلى إنهاء الصراع بين الشمال والجنوب. هل ستؤدي ما يسمى بثورة ١٩٦٩ إلى تحقيق جميع تطلعات الاستقلال؟

سنوات حكم نميري

كان نميري ناشطا سياسيا طوال حياته. تم طرده من المدرسة لتنظيمه إضراب ضد الحكم البريطاني، ثم طُرد من الجيش في وقت لاحق بسبب سياساته اليسارية، لكن تم قبوله بشكل غامض مرة أخرى في هيئة الضباط. بعد تلقيه دورة تدريبية في كلية القيادة والأركان بالجيش الأمريكي في فورت ليفنوورث، تم تعيينه لإدارة مدرسة لتدريب الجيش، وهو موقع مفيد يلبي احتياجات الطلاب العسكريين الشباب من المثل العليا لحركة ضباطه الأحرار. لقد شكل ابن ساعي البريد، وإن كان قد نشأ مع أسلافه الأرستقراطيين في دنقلا، ثورته على غرار ثورة ناصر بشكل وثيق. قامت جوديث ميلر، من نيويورك تايمز، بمقابلته عدة مرات ولم تظهر إعجابها، حيث وصفته :

مترهل، أسود البشرة وملوث في عيون العديد من مواطنيه الشماليين العنصريين بسبب الندوب التي في وجهه - التي أوقعها المعالجون القبليون لحماية الأطفال من أمراض العيون التي لا حصر لها في النيل - كان خطيبا فقيرا.

كان ذكياً وحيوياً وشرسا. كانت مجموعته الصغيرة من المتعاونين العسكريين مصمِّمة على إعادة تشكيل النظام الاجتماعي والاقتصادي في دولة اشتراكية جديدة قد تكون علمانية معترف بها. كما كان مثل عبد الناصر، يؤمن بالقومية العربية. إنَّ مجلس القيادة الثوري يحتاج إلى حلفائه في بعض الأحيان في حزب السودان الشيوعي لتحقيق هدفه، لا سيما القضاء على المعارضين الدينيين الرئيسيين، الإسلاميين، وخاصة الأنصار. بعد أن قام الأنصار باحتجاجات جماهيرية في أم درمان ، في مارس ١٩٧٠ قرّر الضباط الأحرار العمل ضد القلب المحصن للمهدية القديمة. تم إرسال أسطول عبر النيل الأبيض لمهاجمة جزيرة أبا المحمية جيداً. قتلت قوات الجيش الآلاف من الأنصار بعد مقاومة شديدة وتمت مصادرة أراضي وممتلكات جميع عائلة المهدي الممتدة وتعيّن على الصادق المهدي المهذب تهريب نفسه إلى خارج البلاد في منفى مدته طويله. ثم شرعت حكومة الجيش الاشتراكي المتطرف في الخرطوم في تأميم كل القطاع التجاري الخاص تقريباً، بما في ذلك الشركات والبنوك الكبيرة والناجحة في السودان. كانت التعويضات ضئيلة، ومع ذلك ، فقد مُنح العمال حقوقا أكثر، وتم إعفاء ديون إيجارات الجيش الضخمة من المستأجرين في مشروع قطن الجزيرة. تمت زيادة عدد المدارس. ومع ذلك، وكما هو الحال مع جميع البرامج الاقتصادية للاشتراكية الحكومية تقريبا، فشلت الخطط الخمسية. صاغت السياسة الخارجية المتطرفة الإصلاحات الاشتراكية المحلية كما تم السعي للحصول على قروض من الكتلة السوفيتية وقام نميري بجولة في أوروبا الشرقية والصين وكوريا الشمالية، فضلا عن الانخراط في الشؤون العربية. تحول نميري من الغرب، خاصة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وبالأخص في مجال مشتريات الأسلحة، حيث جاء الفنيون السوفيتيون إلى السودان للمساعدة في توسيع الجيش من ١٨٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ رجل، مع ترسانة من الدبابات السوفيتية والمدفعية والطائرات. كما ورَّدت مصر المعدات بما في ذلك ناقلات الموظفين المدرعة.

كانت عناصر من الحزب الشيوعي حذرة منذ فترة طويلة من الحكومة العسكرية، لأسباب ليس أقلها أنهم كانوا يريدون خلق ثورة شعبية كبيرة من الفلاحين والعمال، وليس ذلك على أساس انقلاب قامت به مجموعة صغيرة من الضباط البرجوازيين. كما كانوا يكرهون مشاركة نميري مع ليبيا ومصر في ميثاق طرابلس، الذي أقام تجربة عربية أخرى، وهي اتحاد الجمهوريات العربية. علاوة على ذلك، فقد أزال عبدالناصر المريض والعقيد الليبي المتحمس العشوائي، القذافي أحزابهم الشيوعية. قام نميري في البداية بتطهير بعض الضباط الرئيسيين المؤيدين للشيوعية في مجلس قيادة الثورة. اعتقاداً منه بأنَّه كان يتمتع بشعبية لدى الشعب، قام الرئيس الآن بتنفير جميع الأحزاب والحركات السياسية في البلاد، وأحبطت مخابراته العسكرية ما لا يقل عن عشرة محاولات مخططة أو فعلية للإطاحة به في السنتين الأوليين من حكمه. في ١٩ يوليو ١٩٧١ نجا من الضباط المؤيدين للشيوعية، ولتجنب الاعتقال الوشيك، قاموا بانقلاب متسرع في الخرطوم في وضح النهار. كان قادة الحزب الشيوعي السوداني في زيارة إلى لندن و تم القبض على كثير من الضباط الناجين المؤيدين للشيوعية على حين غرة. هكذا كان نميري، الذي تم القبض عليه. تم إطلاق سراح السجناء الشيوعيين في المدينة وشجعوا على تنظيم احتجاج في جميع أنحاء الخرطوم، وهم يلوحون بالأعلام الحمراء ويرددون الشعارات الثورية. أعلنت الإذاعة الوطنية التأميم الزراعي والتجاري. لقد تم إستبعاد المحافظة الغريزية

لدى السودانيين خاصة في المدن الثلاث. ظلت فرق الدفاع الشمالية في شندي مواليه وتوجهت نحو العاصمة، في حين أنَّ وحدة دبابات أطلقت سراح نميري، بعد تبادل النيران.

كما تدخل رئيس مصر الجديد. أمرت وحدات الجيش المصري التي كانت تحرس منشآت السدود بالتحرك نحو الخرطوم وساعدت القوات الجوية المصرية في إرسال القوات السودانية الموالية. استمر الانقلاب الشيوعي المتسرع لثلاثة أيام فقط قبل سحقه. وقد تمت محاكمة المتآمرين الرئيسيين سرا وتم شنقهم على الفور، بمن فيهم أولئك الذين فروا إلى ليبيا (وعادوا بسرعة). أُلقي القبض على الآلاف من الشيوعيين واُعتقلوا في حملة شاملة. أمّن ذبح الأنصار السريع ثم الشيوعيين عرش نميري المهتز. لكن أعماله الانتقامية المليئة بالدم والمحاكمات وعمليات الإعدام السرية أساءت إلى اعتقاد وإعتزاز السودانيين بكياسة حياتهم السياسية. قد يتنازع الجميع ويتحملون الانقلابات، لكن سفك الدماء بين المسلمين كان يُنظر إليه عموما على أنَّه حرام. هزّت محاولات الجماعة الشيوعية ثقة نميري وابتعد عن موقفه الاشتراكي اليساري. تم استيعاب عدد قليل من الشيوعيين في الاتحاد الاشتراكي الجديد في السودان، لكن قوة الحزب الشيوعي كانت مكسورة إلى الأبد، على الرغم من أنَّه استمر لفترة طويلة كرديف. كانت حركة نميري هي الحزب القانوني الوحيد في البلاد، وكانت الصحافة تخضع لرقابة صارمة، لمجرد التأكد من أنَّه كان يتمتع بشعبية حقيقية، وفي عام ١٩٧١ سمح استفتاء مزور لنميري بأن يكون رئيسا، لمدة ست سنوات أخرى.

<u>الجبهه الجنوبية تحت إمرة نميريmj7</u>

كانت تلك إسعافات أولية مؤقتة لمشاكل الشمال، ولكن ماذا عن الحرب الأهلية في الجنوب؟ كان الحزب الشيوعي قد تفاوض بشأن صفقة تسمح بالحكم الذاتي للجنوب، لكن هيئة الضباط المطلق سراحهم حديثا أرادت مزيد من الأسلحة والقوات لسحق ما اعتبروه "عصيانا" وإن كان تمثيلا طويل المدى وشاملا. ومع ذلك ، كانت هناك صفقة سياسية تُحاك على الطاولة. كان على النميري دعم خياراته. في الجنوب، ما زال أقري جادن يحاول تحقيق القيادة السياسية المستحيلة على ما يبدو لأنيا-نيا. وقد تم تخفيض رتبة جوزيف لاغو الرفيعة من قائد أعلى، وبالتالي رفض العمل مع القائد العام الفخري، وهو أميدو أودونجي، صاحب الخدمة الطويلة ولكنه أميا وغير كفؤ، على الأقل من وجهة نظر لاغو. ما زال القادة العسكريون ينظرون إلى القيادة السياسية على أنَّها قطط سمان غير فعّالين وغالباً جبناء. بعد حرب السته أيام عرض لاغو فتح جبهة عسكرية جنوبية موحدة للإسرائيليين، حتى أنَّ لاغو قام بزيارة سرية لإسرائيل حيث قرّر الموساد الأكثر تأييدا توفير مزيد من المال والأسلحة كما قرّرت إسرائيل أيضا التخلي عن التظاهر بدعم حكومة جنوب السودان المؤقتة للتركيز على تصميم لاغو لتوحيد القوات الجنوبية المقاتلة، دون تقديم الدعم للسياسيين البائيسين. بالتأكيد يبدو لاغو أكثر إشراقا وأكثر خبرة من أودونجي، فهو ينحدر من مجموعة المادي الإثنية الصغيرة، وسرعان ما أتقن اللغات الجنوبية الرئيسية بالإضافة إلى اللغة العربية والإنجليزية. بعد دخوله ربما أفضل مدرسة ثانوية في الجنوب، في رمبيك، كان واحدا من اثنين من الجنوبيين الذين حضروا الكلية العسكرية السودانية، حيث تم تعيينه كملازم في عام ١٩٦٠، ثم انشق عن الجيش السوداني وبحلول عام ١٩٦٣ كان يقود أنيا نيا، حيث كان يحمل حقدا مساويا لما يضمره للسياسيين الجنوبيين وكذلك الحرب القبلية المميتة. في النهاية، سمحت له العلاقة الإسرائيلية، المتحالفة مع مهاراته العسكرية، بالهيمنة على المقاومة العسكرية الجنوبية.

كان التدريب العسكري الإسرائيلي والإسقاط الجوي المنتظم للأسلحة أمراً مهماً بالنسبة إلى أنيا-أنيا، كما كانت كذلك دبلوماسية الموساد حيث تم إقناع الإمبراطور هيلاسيلاسي بسهولة للسماح لمعسكر تدريب في الجنوب بالعمل على أراضيه، لاسيما لتحريك القوات عبر الشمال إلى أعلى النيل. وكانت الخرطوم والعواصم العربية الأخرى يدعمون التمرد الأريتري في أقصى شمال أثيوبيا. كما جاء الدعم الإسرائيلي لأنيا نيا عبر أوغندا. منذ يناير ١٩٧١، بدأت مجموعات صغيرة من الجنوبيين بالتدريب، ولا سيما في مجال الاتصالات العسكرية، في إسرائيل. في نفس الوقت، قام لاغو بإعادة تسمية قواته الموحدة (نسبياً) بحركة تحرير جنوب السودان. ومن الناحية المنطقية، كان من المنطقي السماح للجيوش العرقية بالدخول إلى مختلف الولايات الجنوبية، مع وجود مركز قيادة نظري. أدّى ذلك إلى تفاقم الانقسامات القبلية في وقت لاحق. بحلول عام ١٩٧٠ ، أدّى التدريب الأفضل، والتنظيم، والأسلحة والإتصالات إلى نقل الحرب الأهلية إلى مرحلة أكثر عدوانية. تم تلغيم الطرق الرئيسية بينما تُركت المدن الرئيسية في أيدي الحكومة، لكنها غالبا ما كانت معزولة بشكل خطير. حتى جوبا، العاصمة الجنوبية، تعرضت للقصف بالمدفعية. كان من الصعب على السودانيين أن يُزوِّدوا عن طريق الجو، على الرغم من تدفق المستشارين السوفيتيين والطائرات المقاتلة وطائرات النقل الجديدة والمروحيات. وقد تم في بعض الأحيان مواجهة الدروع السوفيتية من خلال الاستخدام الناجح للأسلحة الإسرائيلية المضادة للدبابات. ومن أجل استعادة بعض السيطرة على المناطق الداخلية الاستوائية بجوبا، ساندت قوات الكوماندوز المصرية الجيش السوداني.

لقد أصبح المتمردون الجنوبيون يحاربون بشكل أفضل، لكنهم اعتمدوا جزئياً على نوعية قيادة القادة المختلفين بالإضافة إلى التضاريس المختلفة. كانت المناظر الطبيعية الوعرة للغابات والتلال الاستوائية مثالية لحرب العصابات، وخاصة خلال موسم الأمطار، ولكن في موسم الجفاف على طول الحدود مع شمال السودان، كانت المراعي والفرك والصحارى تسهل عمليات القيام بدوريات ومضايقات من الجو أو على طول نهر النيل والأنهار الأخرى الصغيرة.

بدأ النوير في أنيا-نيا، من خلال الإمدادات من أثيوبيا، بضرب الكتائب المدرّعة والاستيلاء على كميات كبيرة من الأسلحة من الحكومة. كما قاموا بضرب الكتائب في محاولة لكسر الحصار المفروض على واو، فضلا عن تدمير السكك الحديدية المؤدية للمدينة. وقد أدّى التواجد العسكري في الشمال إلى وضع ١٣٠٠٠من المقاتلين الجنوبيين بصفة دائمة أي أكثر من خمس سنوات قبل ذلك. كان المتمردون مسلحون ومدربون بشكل أفضل بفضل الدعم الأجنبي. ورأى بعض كبار ضباط الجيش في الخرطوم، الذين كانوا يقومون بالقتال في الجنوب، أنَّ مكافحتهم للتمرد قد وصلت الى طريق مسدود. ربما يمكن أن ينجح المنهج السياسي أخيرا، على الأقل مؤقتا، للسماح للجيش الشمالي بإعادة تنظيم صفوفه.

إتفاقية السلام الأولى

بمباركة هيلي سيلاسي، إلتقى القادة الشماليون وكذلك وسطاء الكنائس في أوائل فبراير في فندق هيلتون في أديس أبابا. تم عقد اجتماعات تمهيدية بشكل سري لعدة أشهر. أمرالشمال بوقف إطلاق النار من جانب واحد، في حين أنَّ حركة تحرير جنوب السودان (SSLM) كانت لا تزال تريد الانفصال الكامل. في السنوات الأخيرة صورت الميثولوجيا الجنوبية محادثات أديس كبيع، لكن فشل ذلك في فهم الظروف الأفريقية في ذلك الوقت. كانت الحكومة الأثيوبية تحارب

الحركات الانفصالية، لا سيما أرتريا، وكان الشعار المُؤسِّس لمنظمة الوحدة الأفريقية، بعد الحروب الأهلية الرهيبة في الكونغو ونيجيريا، هو الحفاظ على الوحدة - الحدود الاستعمارية التقليدية - بأي ثمن. وقد اختار نميري ضباطاً عسكريين تم اختيارهم بعناية، وكانوا مستعدين للتوصل إلى حل وسط ، بينما كان اللواء لاغو مصمماً على التوصل إلى اتفاق.

قبل معالجة القضية الدستورية الرئيسية، اتفقوا على اللغة الإنجليزية كلغة رئيسية في الجنوب. كان يجب الحفاظ على الحدود اعتبارا من ١ يناير ١٩٥٦، الخط الموروث من السلطة الإمبريالية، وسيحتفظ الجنوب بوحدته الإدارية، كما سيقوم مجلس إقليمي جنوبي بإدارة جملة أمور منها التعليم والصحة العامة والشرطة، لكن الحكومة الوطنية ستكون هي مقر الحكومة الإقليمية.

ظل الجيش نقطة خلاف، حيث أراد وفد الجنوب وجود جيش منفصل يديره ضباط جنوبيون، بينما كان الشمال يعتقد أنَّ هذه كانت الخطوة الأولى نحو الاستقلال. بعد أيام من الجمود، اقترح الإمبراطور، كمضيف، حل وسط وهو أنَّه سيتم إنشاء قيادة جنوبية تضم ١٢٠٠٠ من الضباط والرجال - نصفهم من الجنوبيين. وقد تم توقيع الاتفاق في ٢٧ فبراير ١٩٧٢.

أعلن نميري النصر الكبير، وجعل وقف إطلاق النار المؤقت دائما وقام بجولة في الجنوب، حيث تلقى ترحيبا حارا. كان هذا الارتياح عظيما بنهاية سبعين عاما من القتال، خلّفت ورائها الآلاف من النازحين والآلاف من القتلى، لدرجة أنَّ مخاوف لاغو من أنَّ القوات الجنوبية التي يبلغ عددها ٦٠٠٠ جندي ستُكّون أنيا نيا قد تم إلقاء الضوء عليها. قد تنجح الصفقة، لكنها تعتمد جميعها على حسن النية والثقة. على الرغم من عدم وجود الثقة، استمرت بعض النوايا الحسنة وتم عقد الإتفاقية لمدة أحد عشر عاما.

أعلن الشماليون نميري كصانع سلام عظيم، وانتشرت الشائعات بأنَّه سيحصل قريباً على جائزة نوبل للسلام. ذهب لاغو إلى الشمال وأصبح جنرالا رئيسيا في الجيش السوداني، ولكنه ليس نائبا للرئيس كما كان متوقعا (وهو خطأ تم تجنبه بعناية في اتفاق عام ٢٠٠٥). وسيطر على الحكومة الجديدة المحليين المتعلمين بالبعثات في جوبا، في حين كان عدد من المنفيين المتعلمين العائدين يشعرون بخيبة أمل بشكل عام، كما كان الحال بالنسبة للنوير والدينكا الأكثر سكانا في بحر الغزال وأعالي النيل. واضطر عشرات الآلاف من اللاجئين إلى العودة إلى الوطن عبر الحدود الجنوبية ، بينما اضطر عدد أكبر من النازحين داخلياً من الشمال والجنوب إلى إعادة التوطين. يقودها المفوض السامي للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بدأت مجموعة من المنظمات غير الحكومية الدينية والقانونية تتداول حول مهمة الإعادة إلى الوطن وإعادة التوطين. لا يزال العديد من هذه المنظمات موجود هناك بعد أكثر من أربعة عقود، حيث ظهرت المنظمات غير الحكومية كنوع من الحرس الخلفي الإمبراطوري، فلقد كانت تغطي التراجع الغربي عن إفريقيا.

سرعان ما تم إحراز تقدم تمثل في تشكيل قوة شرطة أكثر تمثيلا، لكن لم تستطع الخرطوم التخلص من إرث الأداة القومية الشمالية - التي ربما تكون الأداة الوحيدة الفعّالة، كصانع، ومهدِّم، ووسيط للسلطة في الخرطوم. كيف يمكن أن يضعف ذلك الجنوبيين الذين قد يستخدمون هذه الاداة لتقويض الوحدة الهشة في البلاد؟ كان هذا هو السؤال الدائم في الشمال. بقيت التقسيمات التقليدية: فمعظم رتب الصف في الجيش الشمالي كانت من المناطق المحيطية، وبصورة رئيسية الغرب، بينما جاءت طبقة الضباط من النخبة القوية التقليدية النهرية. ومن

المفارقات، أنَّ العديد من الضباط كانوا مستعدين لقبول الانفصال بدلاً من تمزيق جيشهم الوطني المحبوب.

يمكن تدمير قوة الجيش في الشمال كما في الجنوب، أوهكذا يخشى بعض الضباط. بعد سبعة عشر عاما من القتال والدعاية، لم يستطع بعض الضباط التسامح مع "العبيد" و "الإرهابيين" في جيشهم وبالتالي استقالوا. خشي الجنوبيون من أنَّ القيادة الجنوبية ستقوم في وقت قريب بإزاحة المتمردين ذوي الخبرة أو الذين يعانون من التمييز، من الجيش الشمالي الأكبر والأكثر تطوراً. ربما رأى عدد قليل من المثاليين الجنوبيين أنَّ التوزيع الجديد هو فرصة لإنشاء قوة جنوبية غير قبيلة سليمة. وربما كانت مجموعة أصغر تأمل في أن تظهر في السودان ديمقراطية موحدة – في نهاية المطاف.

كان من المُقرّر أن يدوم دمج الجيش خمس سنوات، إذا تم توطين الشرطة والسجون بسرعة. تم دمج وإعادة تدريب أكثر من ٦٠٠٠ مسلح، بالتناسب من كل محافظة، كما تم إرسال عدد قليل منهم إلى الخارج، على سبيل المثال، تم إرسال القبطان الواعد جون قرنق دي مابيور، الذي كان متوجها لقيادة الجيش الجنوبي بأكمله، إلى الولايات المتحدة لتلقي تعليم متقدم وتم نشر أكثر من نصف المقاتلين السابقين في الأشغال العامة في المزارع والطرق والحراجة، على الرغم من أنَّ خطط خلق فرص العمل سرعان ما تراجعت بسبب نقص الأموال. حتما، كان بعض المحاربون المحبطون غير سعداء. في أواخر عام ١٩٧٤ وأوائل ١٩٧٥ اندلع التمرد في المقام الأول في جوبا وواو في محاولات لاستئناف الحرب. تدخل الرئيس الإقليمي الجديد أبيل ألير. كان ألير محاميا وقاضيا لحقوق الأنسان محترما، وهو مسيحي من دينكا بور، عيَّنه نميري نائبا للرئيس السوداني. في كثير من الأحيان كانت الأزمات المحلية تتطلب سلطة اللواء لاغو لجلب المعارضين إلى الطابور.

OMAR AL-BASHIR
& AFRICA'S LONGEST WAR
PAUL MOORCRAFT

OMAR AL-BASHIR AND AFRICA'S LONGEST WAR

PAUL L. MOORCRAFT

Pen & Sword
MILITARY

First published in Great Britain in 2015 by
PEN & SWORD MILITARY
an imprint of
Pen & Sword Books Ltd
47 Church Street
Barnsley
South Yorkshire
S70 2AS

Copyright © Professor Paul L. Moorcraft, 2015

ISBN 978 1 47382 823 0 HB
ISBN 978 1 47384 252 6 TPB

The right of Professor Paul L. Moorcraft to be identified as the author of this work has been asserted by him in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988

A CIP catalogue record for this book is available from the British Library

All rights reserved. No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without permission from the Publisher in writing.

Typeset in Times New Roman by Chic Graphics

Printed and bound in England
by CPI Group (UK) Ltd, Croydon, CR0 4YY

Pen & Sword Books Ltd incorporates the imprints of
Pen & Sword Books Ltd incorporates the imprints of Pen & Sword Archaeology, Atlas, Aviation, Battleground, Discovery, Family History, History, Maritime, Military, Naval, Politics, Railways, Select, Social History, Transport, True Crime, Claymore Press, Frontline Books, Leo Cooper, Praetorian Press, Remember When, Seaforth Publishing and Wharncliffe.

For a complete list of Pen & Sword titles please contact
PEN & SWORD BOOKS LIMITED
47 Church Street, Barnsley, South Yorkshire, S70 2AS, England
E-mail: enquiries@pen-and-sword.co.uk
Website: www.pen-and-sword.co.uk

Chapter 1

The Historical Background

What is Sudan?

Sudan derives its name from the Arabic *bilad as-Sudan* meaning 'land of the blacks' and historically referred to the wider region immediately south of the Sahara; so modern Sudan is just *part* of a region defined by Arabic-speaking North Africans. Separately, *Sudd* (or *Sadd*) is Arabic for 'barrier'; this defines the largest swamp in the world, to be found in the south. The country also boasts the longest river in the world, the Nile; actually it is at least two rivers, mainly the Blue Nile, creamy brown from the mud of the Ethiopian highlands, and the paler White Nile, which merge at Khartoum, the capital of what was Africa's biggest country until the secession of the south.

Topography and climate have pre-conditioned much of the country's history. A glimpse at a relief map will immediately distinguish the dry north from the more tropical south. It is a land of mountains, swamps and jungles as well as unforgiving deserts and interminable savannah. For thousands of years the nature of the terrain made military campaigning difficult, even for modern armies, as the British found in the late nineteenth century, not least contending with the forbidding cataracts on the Nile. Colonialists would talk of MMBA – miles and miles of bloody Africa.

Michael Asher, the historian and explorer, said it was 'the most fascinating country in Africa' and noted that its 'vastness and diversity of cultures qualify it almost for the status of a miniature continent'. Modern Sudan was a land of over 600 ethnic groups and distinct languages and dialects, the heritage of migration and conquest. Nomadic lifestyles based on cattle-herding and camel routes to the Red Sea, including maritime access for the *Haj*, led to conflicts with settled pastoralists, clashes which related to changing weather patterns, not least in today's Darfur. It has also been a land of contending religions, chiefly Islam in the north and Christianity and animism in the south.

For thousands of years the land was subject to invasions and wars, which

almost inevitably produced an often venomous cultural racism, based less on colour and ideology and more on ethnic identity and language. An adequate analysis of the Arab tribal groups and southern ethnic distinctions would require a large book on its own. So I will refer to these complex distinctions when they are directly relevant to specific military political events.

For most of my story I will focus on the Ja'aliyyin, Shayqiyya and the Danaqla groups (*awlad al-bahr;* people of the river) that comprise the dominant riverine Arabs, now centred in Khartoum state. These groups have tended to control politics, the civil service and the military since independence. What defines 'Sudanese' has usually been a hard question to answer; the Khartoum elite stressed the Arabic language, claims to Arab ancestry (and sometimes a lineage from the Prophet) and the Islamic religion. This sometimes insecure sense of self-identification was reinforced by the fact that the rest of the Arab world did not always uphold the Sudanese elites' claim to their Arab authenticity. Invasions from the north and, later, Turkish, Egyptian and British occupations reinforced this inferiority/superiority paradox. The mixed 'African-Arab' peoples in the west, in Darfur, although nearly all passionate Muslims, were often looked down on as ill-bred rustics. That feeling extended to many of the peoples in the east, especially the unruly Beja, who were Muslims, though not Arabs. The elite's racism applied in spades to the south, where the majority of the many tribal groups were not Arab and not Muslims. In the modern era many elite Sudanese did not feel entirely comfortable with being identified with 'black Africans' and certainly did not want to be defined as 'blacks' when they worked or travelled in Europe or North America.

What constituted Sudanese identity was still an unanswered question long after independence. The coup of 1989 tried to find a solution: the government was committed to making all Sudanese proper Arabs and Salafist Muslims via a vigorous programme of Arabization and Islamization. This had been tried before by imposing *Sharia* law in the south, but it had triggered ever more resistance among the non-Muslim majority there. After 1989, the Islamist revolutionaries would try again, but they would eventually cause the south to secede. Paradoxically, the northern elite's Khartoum-centric racist behaviour was then replicated in the southern capital of Juba. There, a tiny elite held nearly all the wealth and power; it largely disregarded the peripheries, which exacerbated old and bitter ethnic divisions that in turn fuelled the civil war from December 2013.

Early history

Archaeologists have found evidence of a Neolithic culture along the Nile from the eighth millennium before our common era (BCE). The region of Upper Egypt and Nubia (the latter centred on the confluence of the Blue and White Niles and River Atabara) developed similar systems of kingship – rule by Pharaohs – around 3,300 years BCE. The Nubian Kushite kingdom invaded Egypt in 800 BCE. The Kushite Empire stretched from South Kordofan to the Sinai, until the Assyrians halted the Nubian expansion when they invaded Egypt.

The Nubian capital became Meroë. The kingdom was advanced, among the first to develop iron-smelting technology. The Kushite kingdom of Nubia survived the expansion of Roman power in the region, but eventually collapsed in the fourth century AD. The empire broke up into many small states run by warrior aristocracies based around the Nile in what is now northern Sudan. The princely courts were soon influenced by the growing power of Byzantium, thus coming under the sway of various branches of Christianity after AD 550. In the seventh century, the armed followers of the Prophet Mohammed exploded into one of the most remarkable military expansions in history, which eventually conquered territory from the Pyrenees to the borders of China.The Islamic conquests of Egypt inevitably spread the word of the Prophet south via a mixture of war, trade and intermarriage. The riverine Arabs of today descended from the fusion of Arab and Nubian cultures. During the sixteenth century the Funj people moved from southern Nubia and displaced the surviving Christian kingdoms to establish what became known as the Sultanate of Sennar or the Blue Sultanate.

This Sultanate practised an unusual mix of Islam along with Christian and animist beliefs; for example, many of the festivals involved a great deal of alcohol consumption. Despite conflict with Abyssinia/Ethiopia in the east, and the African kingdoms of the south, for the first hundred years the Sennar armies were very effective. They relied on shock troops of heavy cavalry formed from the nobility, as in Europe; they were armed with long broadswords, rather than lances. The horsemen also wore chain mail. The mass of the army, however, was based on infantry carrying swords. Unusually, the Sennar Sultanate sustained a standing army, the result of a successful gold-based economy. It was the largest standing army in north-east Africa until the early nineteenth century. Forts and castles were set up as permanent garrisons. This centralized and well-trained force meant that neighbouring ad-hoc armies were usually defeated. The empire was finally

overcome by a bigger, better-organized and better-armed empire – the Ottoman Turks, via their Egyptian proxy.

The *Turkiya*

Technically, Egypt was ruled as part of the Ottoman empire based in Istanbul, but the Khedive (Viceroy) in Cairo, Muhammad Ali, regarded himself as an independent ruler, one with his own imperial ambitions. Originally an Albanian (or some say Kurdish) general in the Ottoman army sent to drive Napoleon's forces from Egypt, Muhammad Ali wanted to forge an Egyptian empire in Libya, Sudan, Ethiopia and east Africa. He later pushed into Arabia, planning to displace Ottoman rule completely. The gold and slaves he would acquire would pay for his army's conquests. It would also distract his army from meddling in domestic politics. In 1821 the Khedive's third son, Ismail Kamil Pasha, headed a motley force of 4,000 Albanians, Turks, troops from the Maghreb and Egyptian Bedouin, plus, crucially, an artillery unit led by an American officer, into northern Sudan.

They gradually conquered most of the riverine settlements. The locals referred to the invaders in general as 'Turks'. Turkish was the language of the administration, only gradually replaced by Arabic. Sudanese call this period *Turkiya*, although Western historians use the awkward phrase Turco-Egyptian rule. Some Sudanese clans fought back, but their lances and swords – and often determined bravery – were no match for the invaders' firepower. Central administration and irrigation brought improvements, but modernization also meant rigorous taxation. The newcomers attempted to introduce a more orthodox form of Islam to the Sudanese, although the mystical *Sufi* version remained dominant in the rural areas. An extremely onerous system of tax on slaves, cattle and grain, plus a hut tax, eventually prompted a revolt, led by the Ja'aliyyin coalition in Shendi. They burnt to death Ismail Pasha and his key henchmen in their quarters, and the revolt spread.

'Turkish' rule tottered and would have collapsed except for their superior weapons. The survival of the occupiers was aided, as ever, by tribal disunity among the Sudanese. One of the most determined initial resisters to the Turks was the Shayqiyya tribe. They fought so bravely that Ismail Pasha absorbed their cavalry units into his own forces and later sent them to strengthen his garrisons around the country – their widespread influence was to last well into the twentieth century. When the Ja'aliyyin clans rebelled, the armed horsemen of the Shayqiyya remained loyal to their new foreign overlords and helped to suppress the rebellion. Incensed by the death

of his son, the Khedive in Cairo ordered his occupying troops to destroy all opposition with 'fire and sword'. So great was the vengeance that it took sixty years for the Sudanese to organize another revolt against the Ottoman system.

The occupiers installed a new 'Governor-General', Uthman Bey, who established, in 1825, a new capital in Khartoum. The origins of the name are disputed. Early British explorers assumed it came from *qurtum*, a flower cultivated extensively in Egypt for its oil. Arab historians prefer to derive the name from the shape of the spit in land in the confluence of the White and Blue Nile that looked a little like an elephant's trunk. The Arabic *khartum* fits this translation better.

Uthman Bey was a middle-aged Mamluk, originally from the Caucasus. The Mamluks, a little like the Janissaries who comprised mainly Christian boys from the Balkans, were originally a warrior class formed from slaves. Their discipline was akin to the Christian military orders, except in this case their loyalty was to Islam. The Mamluks had acquired respect because they had defeated the Mongols and the Crusaders, although the Khedive also had to suppress a Mamluk rebellion in Cairo. True to his own origins, Uthman Bey set about forming a new regular army by capturing slaves from the Nuba Mountains and the upper Blue Nile region. Slavery was believed, by some, to be sanctioned by the Koran, although it was *haram*, forbidden, to enslave Muslims. Other imams argued it was *haram* to enslave anybody. Ordinary slaves could never carry weapons, but the strict discipline and Islamic indoctrination of the new army, called *jihadiyya,* inspired loyalty. They were trained in Aswan by European instructors, although their officers were literate in Turkish, the language of command. This regular force comprised the backbone of the military power of the Turco-Egyptian regime.

The civilian administration, however, did not match the relative efficiency of its army. Eventually the rapacious tax system was reformed, but the slave-raiding economy was not. The Khedive in Cairo, still an ambitious empire builder, urged his administration in Khartoum to explore the White Nile and to traverse the so far impenetrable *Sudd* to reach the imagined riches of the African hinterland. Gold, ivory and slaves were there in abundance, Cairo believed. This expansionism coincided with a growing European interest, especially in France and Britain, in discovering the source of the White Nile. The Khartoum government was encouraged by Cairo to push ever south, but meanwhile the *Turkiya* controlled only the settlements along the river as far as Khartoum and a few so-called 'islands of authority' in regions such as Kordofan. Elsewhere, except for occasional punitive or

slave-raiding expeditions by the *jihadiyya,* local warlords and nomads did what they pleased in the vast ungoverned expanses. The *ghazis,* or tribal warriors, carried on their feuds and mini-wars, capturing cattle and women, untroubled by the would-be centralizers and modernizers in the far-away capital.

As Muhammad Ali, the Khedive in Cairo, slipped into senility and paranoia, his empire declined, especially in Sudan. He had become more and more reliant on foreign aid from European Christians, especially bankers, traders and soldiers. When he died in 1849, his successor, his grandson Abbas I, was an ineffective conservative who did his best to exclude Western influence during his brief rule. His successor, however, Muhammad Said Pasha, had been educated by French tutors and welcomed Western investment, not least for the construction of the Suez Canal and the development of the telegraph. He came to rely more and more on foreign loans. As he slipped more deeply into debt, he considered abandoning Sudan.

He stayed, however, and made the weak provincial administrations directly responsible to Cairo, thus enfeebling further the already fragile central government in Khartoum. Influenced by his Western advisers, he ordered his powerless Governor General in Sudan to stop the slave trade in 1854. This incensed Sudanese traders, who regarded the practice as not only a major source of income, but ordained by the Koran. Almost worse for pious Sudanese was the appointment of an Armenian Christian as governor of Khartoum and Sennar. Meanwhile, Western missionaries and traders became more active, often working hand in hand with Europe's great powers who wielded extensive power via their local consuls. The Western traders chased ivory in the south, while the missionaries sought to save souls and prevent slavery. The Muslim elite in Khartoum felt increasingly alienated by Western and Egyptian interventions in their traditional lifestyle.

In 1863 a new more dynamic Khedive, Ismail Pasha, tried to revitalize Egypt and Sudan by extending railways, the telegraph, schools and a postal service – and the final abolition of the slave trade. Railway tracks from Egypt reached Khartoum in 1874 and Suakin on the Red Sea in 1875. The paddle-steamers built in Khartoum improved transportation up the White Nile. Ismail Pasha inherited the dreams of an empire in equatorial Africa. A modernized army could be deployed by the new trains and ships. Krupp artillery was introduced, and repeating Remington rifles from the USA replaced the old muzzle-loaders. At the end of the American Civil War, soldiers from both sides were recruited as military advisers. Most notably,

a US Union officer, Brigadier General Charles Pomeroy Stone, served as the Egyptian chief of staff. Stone had enjoyed a chequered career. He was jailed without trial, including a long period in solitary confinement, after being accused of treason after the Battle of Ball's Bluff in October 1861. In perhaps one of the most controversial cases of American military jurisprudence, he was eventually released, without charge or apology. Stone was an innocent victim of political infighting. In partial recompense, the US military recommended him for service in Egypt, where he commanded, very ably, for thirteen years. Ironically, the general who had been accused of treason ended up using his engineering skills to build the foundations and pedestal of the Statue of Liberty.

The Khedive also tried to establish an effective police force from Shayqiyya irregulars. They did little to crush the slave trade, however. The traders usually bribed the police when they were stopped on boats on the White Nile or at inland slave markets. The local corruption and connivance in the slave trade further encouraged the Khedive to appoint more European officers whom he considered incorruptible and also morally committed to abolishing slavery. One of the most colourful of these soldiers with a missionary bent was Sir Samuel Baker. Obsessed, like many other Victorian English adventurers with discovering the source of the Nile, he had reached Lake Albert (Nyanza) in 1864. Baker used to travel with his female companion, Florence, who apparently could outshoot and outride her male colleagues. Baker outraged Queen Victoria herself by 'being intimate with a woman not his wife', as the Sovereign put it. That was true. Nevertheless, perhaps because of the popularity of his travel books, he secured a knighthood, but not complete acceptance in polite society. He possibly romanticized the lady not his wife. Baker claimed he had saved the beautiful blonde from sale in a Balkan slave market. She was en route to the Sultan's harem, he said. This was a typical plot of many Victorian pulp novels, but Baker's lifelong hostility to the slave trade may imply that his story of Florence, whom he eventually married, may have had some credibility.

As an Ottoman Pasha, Baker led an army into the south in 1870. He spoke reasonable Arabic and was an energetic leader who managed to penetrate the *Sudd* and expand the Khedive's equatorial empire. According to one leading historian of Sudan, however, he showed 'colossal insensitivity as an Englishman and Christian leading Turkish, Egyptian and Sudanese Muslims on a mission to end the slave trade'.[1] He fought battles with hostile – sometimes cannibalistic – tribesmen and argued bitterly with his own allies. Frustrated, he left Sudan in 1873 never to return.

Interestingly perhaps for Western historians, but fatal to many Sudanese, Baker was replaced as Governor of Equatoria by another flamboyant military adventurer who, in addition, happened to be a stubborn and self-righteous Christian mystic: Charles George Gordon. He was more commonly known as General 'Chinese' Gordon because he had suppressed the Taiping rebellion in 1864. With a small core of European officers, he restored the morale and discipline of the garrisons along the Upper Nile and introduced armed steamers. To the south he raised the Egyptian flag on Lake Albert, in the Great Lakes region dividing Uganda and the Congo. Khedive Ismail was planning an imperial pincer movement by sending an army along the Red Sea into Ethiopia. London put pressure on the Khedive to abandon his forlorn hopes of a new north-eastern empire. Diplomatic constraints and defeats in the field forced a withdrawal from Ethiopia. The Khedive's troops were more successful in Darfur, where the Fur army was defeated in January 1874. The capital of El Fasher was occupied.

Cairo became the victim of imperial overreach generating military setbacks in Ethiopia and renewed revolt in Darfur and elsewhere in Sudan. General Gordon promised the Khedive that he could restore order in the whole of Sudan and also crush the slave trade. The Khedive agreed to Gordon's ambitious plans in early 1877. The purchase and sale of all slaves was to be terminated by 1880. The Khedive was no humanitarian campaigner; he was keen to use abolition as part of his charm offensive to ensure Western political and financial support for his regime.

Gordon became perhaps *the* British imperial icon, because of the nature of his death which became almost the late Victorian equivalent of a Passion play. Born in London, in 1833, the son of a major general, Gordon was unlike the womanizing Baker, his predecessor. Gordon was a determined bachelor, very awkward with women, and a man who preferred to organize boys' clubs. There is no proof of his homosexuality, but modern psychologists might define Asperger's syndrome because of his obsessive routines (starting with a cold bath every day at the same time), social rigidity and poor personal communications skills. He was a brave soldier, however: Mars without Venus. Commissioned into the Royal Engineers, he saw service in the Crimean War and then led Chinese troops, ruthlessly, in the 1860s during various rebellions against the Chinese emperor. Usually with London's encouragement, he became an imperial trouble-shooter. The Belgians wanted him to sort out the Congo, but he went instead, briefly, to India. He served in Mauritius and then assisted the Cape colonial government in resolving problems in the

British protectorate of Basutoland. He was a religious crank, who held all sorts of eccentric evangelical beliefs, the least of them being reincarnation. Yet he was determined to die for his principles, no matter how much damage he did to the British government. He was lionized in England, though usually detested in China and Sudan. No one actually knows how he died, but it was imagined and romanticized in a popular painting by George William Joy in 1885 as 'General Gordon's Last Stand'. This painting stood alongside Lady Elizabeth Butler's 'Remnants of an Army' that portrayed Dr William Brydon as the sole survivor of the massacre of General Elphinstone's army in Afghanistan. Both depicted, at least in the popular imagination then and now, nadirs of the British imperium. The George Joy painting has, of course, been subsumed by Charlton Heston's depiction of the noble Gordon in the 1966 Hollywood production, *Khartoum*. It is sometimes hard to separate popular imagery from historical events, but Gordon did not resemble Charlton Heston. He was short – about five feet five inches, albeit well-built. Most importantly, he deliberately disobeyed clear explicit orders, thus undermining the career of his prime minister, destroying a London government and, in the Sudanese perspective, causing the unnecessary death of thousands of civilians in Khartoum.[2]

The English Pasha did achieve a great deal in a short time. He curbed, but did not destroy the slave trade. Speaking just a little Arabic, he tended to ignore the concerns of Sudanese, especially the elite in Khartoum, and not just their financial interests in the slave trade. He preferred to rely on his European staff, or his local Egyptian officials. Gordon also liked and trusted the Khedive, but in 1879 Pasha Ismail was deposed because of British and French anxieties over the Khedive's profligacy. London and Paris leaned on the Sultan in Istanbul to sack the Khedive, who cleaned out what remained of the gold in the treasury and sailed away to a comfortable exile. Gordon, exhausted, promptly resigned and sought a long holiday in Europe.

In Cairo, the great powers had helped to install Tewfik, Ismail's son, as the new Khedive. Tewfik was reluctant – he preferred farming to politics. Tewfik also understood that he would be a pawn of Western imperialists, especially Britain and France, although the British were in the driving seat. Tewfik's army rebelled against Western control and the Khedive appealed to his British protectors, who occupied Egypt in 1882, not least to secure the Suez Canal. In the so-called Anglo-Egyptian war of 1882, the Royal Navy bombarded Alexandria, and then the army, led by the Highland Brigade, overwhelmed the Egyptian forces at Tel El Kebir, outside Cairo.

Over 2,000 Egyptian troops were killed for the loss of fifty-seven British. Sir Evelyn Baring (later ennobled as Lord Cromer) had been the aptly named Controller-General in Cairo, as part of the Orwellian-styled 'Control' set up by the British and French to run the finances of the bankrupt country. As Consul-General after 1882 he effectively ruled Egypt until 1906. (British military presence survived until 1954.) It was his decision to withdraw completely from Sudan after 1885, because his austerity budget would not permit any costly military adventures. Baring reformed the Egyptian army, under British officers, to make it a more reliable tool of government. His reforms worked. The new (relatively) efficient army became a national symbol in a failed state; this symbolism played no small part in the dominance of the army, even after the revolutions of the contemporary Arab Spring.

Baring was a true believer in the British imperial mission. According to an Arab historian, he believed that 'subject races were totally incapable of self-government, that they did not really need or want self-government, and that what they really needed was a "full belly" policy which kept it quiescent and allowed the elite to make money and so cooperate with the occupying power'.[3] In what was dubbed a 'veiled protectorate', Baring excluded the French and dominated the Khedives, while improving the economy of Egypt.

The *Mahdiya*

The administration in Khartoum was left in the hands of corrupt and inefficient officials during the turmoil in Cairo. Sixty years after their last revolt against foreign intruders, a national Sudanese uprising began in the nine-mile-long Aba Island, on the White Nile, about 155 miles south of Khartoum. A *Sufi* mystic, Muhammad Ahmad ibn Abdullah, moved there to seek religious contemplation. Born in Dongola in 1845, he received an excellent religious education. Like many Sudanese he disliked the imposition of foreign – to him, less pure – forms of Islam. His ideals were based on religious reform, but they tapped into tribal dislike of alien political rule. He had quarrelled with other religious leaders previously, who disputed his views, but in June 1881 he proclaimed that, in visions, the assembly of previous prophets, headed by Muhammad himself – what the Islamic scholars would call *hadra* – had told him he was the 'Mahdi' (the chosen or guided one). The new Mahdi gathered a small movement, calling his followers the *Ansar* (termed Dervishes by Europeans) and started to establish a local system modelled on the original administration of the

Prophet Mohammad. His armed *Ansar* almost completely annihilated a contingent of Egyptian troops sent to Aba Island to arrest him. The rebellion spread, especially after the *Ansar* defeated two more attempts by the *jihadiyya*, led by the hated 'Turks', in September 1881 and May 1882. Slavers, pious men and disaffected tribesmen flocked to the Mahdi, who proclaimed the Islamic end of days. Such messianic movements were not new in Islamic history, but in Sudan and elsewhere in the Western-occupied Middle East, and then in the twenty-first century, the concept of religious renewal via military jihad caught fire. In Sudan's case, it also meant the possibility of driving out the tax-oppressive Turks. Pragmatism and piety became handmaidens of the tribal warriors' martial proclivities. Thus the Mahdi became a Victorian version of Osama bin Laden.

After four months of siege, the garrison at El Obeid, the new capital of Kordofan, had to surrender, providing more modern weapons for the *Ansar* who had fought with lances and swords and great bravery. This Mahdist victory fuelled a national rebellion that spread west, north and to the Red Sea Hills. Very reluctantly, and despite his ideals of financial stringency, Sir Evelyn Baring and London reluctantly agreed to send Egyptian troops, led by William 'Billy' Hicks, a retired British colonel of the Indian Army. It was raised originally to relieve El Obeid. Hicks Pasha, who was not enthused by the whole operation, quarrelled with Egyptian staff officers as his column made its way south, harassed by the *Ansar*. The Mahdists filled in the wells and, more effectively, used propaganda to persuade the Muslim Egyptian forces that the Mahdi was truly leading 'soldiers of God'. The Kordofan expeditionary force was made up of about 8,000 Egyptian regulars, 1,000 cavalry, 100 tribal irregulars, and around 2,000 camp followers. They carried supplies for fifty days on an immense baggage train consisting of 5,000 camels. The army also boasted artillery, including Krupp field guns and six Nordenfelt machine guns. The Nordenfelt had been patented only a few years before and, although reliable, was soon outclassed and absorbed by the company that produced the famous Maxim guns, but in Sudanese terms it was a super-weapon.

By the time the expedition finally struggled to Kordofan, El Obeid had fallen..The operation was maintained to relieve Slatin Bey, the Austrian-born governor of Darfur. The force was, in the words of Winston Churchill, 'perhaps the worst army that has ever marched to war'. Many of the reluctant soldiers had been freed from Cairo's jails, convicted because they had taken part in the 1882 rebellion against the Khedive. Not only were they unwilling, but they were unpaid, untrained and undisciplined. To quote

Churchill again, 'Its soldiers had more in common with their enemies than with their officers.'

Either by mistake or by design, their guides led them to a plain where they were surrounded at Shaykan, south of El Obeid, on 3 November 1883. Hicks Pasha's force was surprised and some of the Egyptians broke and ran; the majority formed up in a square and fought for two days. The Mahdists eventually overwhelmed them. Some Egyptian troops escaped, but the majority of survivors were taken prisoner. The officers were killed outright, although a handful of Europeans managed to make their way to Khartoum. Hicks' body was never found. It was a great victory for the Mahdi, whose jihadists now had modern artillery.

The Mahdists pushed on into Darfur and eventually captured Slatin Bey. Rudolf Carl von Slatin was one of the most colourful of the European rulers of colonial Sudan. His father had converted from Judaism to Catholicism, and his Catholic son had converted to Islam when his Darfurian troops insisted that he needed to become a Muslim to lead them. His conversion helped when he was taken by the *Ansar*. Most captured infidels were murdered, but he was held in captivity for eleven years, mainly in Omdurman – sometimes treated tolerably (and offered wives), at other times with utmost cruelty. He was also shown Gordon's severed head as an object lesson in good behaviour. After a dramatic escape, he sought absolution from the Pope for his temporary apostasy. He also wrote a remarkable book, *Fire and Sword in the Sudan*, which was later used by many British imperialists to argue for the re-conquest of the country.

In his book, Slatin Bey offers a rare and sympathetic pen portrait of the Mahdi:

> He had a light brown complexion, a sympathetic Arab face on which the marks of smallpox were still traceable, an aquiline nose, a well-shaped mouth, slight moustache, and a fringe of hair on his cheeks, but rather thicker on his chin; he was about middle height, neither thin nor stout, was wearing a jibba covered with small square patches of different colours, and a Mecca takia, or skull cap, around which was bound a cotton turban; he generally spoke with a smile and showed a row of glistening white teeth.[4]

Besides the impact of Slatin Bey's book, the letters of Emin Pasha also caused a sensation in Europe. Born to a middle-class Jewish family in Silesia, Isaak Eduard Schnitzer trained as a doctor, but was later disbarred

in Germany. Employed by the Ottoman Empire, the adventurer ended up as a surgeon working for Gordon Pasha. Isaak had converted to Christianity and then, probably, to Islam, always styling himself Mehmed Emin. Gordon put him in charge of Equatoria. After the Mahdist revolution, Emin Pasha retreated south to Lake Albert with his few thousands troops. After the fall of Khartoum, the fate of Emin Pasha became a continuous media event in Europe. The famous Welsh explorer, Henry Morton Stanley, led a relief expedition via an arduous route along the Congo River, and losing two-thirds of his party. Eventually, Stanley met up with Emin Pasha in April 1888 and persuaded him to exit Africa via Zanzibar.

The humiliating defeat of a British general (the Egyptians had promoted Colonel Hicks) was a political blow to British prestige in Egypt and the whole Middle East. And the Islamist nature of the revolt caused anxiety as far away as the British authorities in India. The decision was made, however, not to exact a traditional imperial retribution, but to order the withdrawal from Sudan of all Egyptian troops and administrators and families, especially from Khartoum. The prime minister in London, William Ewart Gladstone, was as reluctant as Baring to get sucked into the expensive wars in Sudan. Sending one man was relatively cheap, however. General Gordon, it was said, had a 'name which was worth an entire army'. Reappointed Governor General, Gordon reached Khartoum on 18 February 1884. His orders were to organize an evacuation of Egyptian and Europeans from the capital.

Gladstone was extremely hostile to further British military involvement in troublesome Sudan. The military occupation of Egypt in 1882 was deemed by his many political opponents a hypocritical betrayal of his principles of non-intervention abroad. The new crisis in Sudan in 1884 was now judged a test of his political sincerity. Ignoring his orders, Gordon decided to stay in Khartoum until he was relieved by forces sent from Egypt. He reasoned that both peace with the Mahdi and total evacuation were impossible. Moreover, he feared that the jihad would spread to engulf Egypt. He did, however, send some women, children and wounded men down the Nile to Egypt. Gordon then set about fortifying the city. The Mahdi himself arrived on the west bank of the Nile opposite Khartoum, in what became known as Omdurman. Gordon showed great courage and charismatic leadership by rallying the frightened citizens of the capital, and its small garrison of 5,000 soldiers. The Mahdi's *shura* (council) argued that it was a trap and the inevitably large force coming from Egypt to relieve the famous general might defeat them. The Mahdi refused to retire to Kordofan.

The final Mahdist assault of 50,000 men came in the early hours of

26 January 1885, when the Nile waters were at their lowest. This exposed solid beachheads around the weakest riverside defences. The Egyptian garrison was overwhelmed, Gordon was killed and the city reduced to ruins. The advance steamers of the relief expedition arrived two days later. 'Too late' screamed the headlines in the British press. To the fury of the British public the death of their hero was not avenged and the large relief force turned around and went back to Cairo.

The leader of the relief force, General Sir Garnet Wolseley, faced much criticism, but it had been a herculean task. Wolseley had served in the lakes of Canada, and arranged for a team of Canadian navigators to help his fleet of small boats overcome the massive obstacles of the six Nile cataracts. This was considered the fastest route through enemy-occupied territory. Eventually, Wolseley divided his 5,000-strong force into an overland camel route (to take a short cut across the big loop of the Nile) while half remained on the river. The internal problems, not least dragging and re-assembling his boats, as well as Mahdist harassment, impeded his progress, although the slow decision in London to permit Gordon's relief was also a factor. The telegraph line had been cut, but Gordon sent out messengers to the north. On 14 December 1884, in the last entry in his journal (which, when published, created a frenzy in the UK) was: 'Now mark this, if the Expeditionary Force, and I ask for no more than 200 men, does not come in ten days, the town may fall; and I have done my best for the honour of our country. Good bye.'

The death of Gordon sent the British popular press into overdrive. The Western media tended to obsess about its own imperial concerns with little understanding about what was happening in Sudan to Sudanese. This bad habit has continued to the present day. Western cultural conditioning tended to portray European Christian heroes fighting either bloodthirsty ignorant Muslims or black pagan savages farther south.

The 317 days of siege spawned a continuous newspaper barrage to send a relief column. Its arrival just two days too late added to the Victorian melodrama. Despite the lack of eye-witnesses, varying – but always lurid – accounts of Gordon's death created a national scandal. In the Hollywood version, over eighty years later, Gordon is beheaded on the steps of the governor's palace. (In the 1990s I had to ascend those same steps to secure rare press passes from another radical Islamic regime; I was never sure whether an implicit warning was intended.) Because it took over a decade to exact imperial retribution, the Gordon saga remained an open wound in the British national psyche.

Queen Victoria addressed Parliament on 14 August 1885 and, unusually for a sovereign, rebuked her own government. She mentioned her 'deep sorrow, which was shared by all my people' and criticized the relief which arrived 'too late' and mourned 'the heroic Gordon'. Gladstone himself usually refrained from defending himself. He did write a private letter at the height of the crisis which said that to have complied with Gordon's demands 'was madness and criminal'.[4] In another private correspondence, Gladstone wrote: 'I must continue to suffer in silence. Gordon was a hero...It was unfortunate that he should claim the hero's privilege by turning upside down and inside out every idea and intention with which he left England and for which he had obtained our approval.' Nearly 130 years later, Gladstone still gets a bad press. To this day the apotheosis of Gordon has been prolonged and almost completely uncritical. His manifest flaws forged a Greek tragedy: hubris leading to nemesis. He wilfully disobeyed his superiors, both civilian and military because he usually held them in contempt. He gravely misread the Mahdist uprising and its tribal and spiritual support and above all its military capacity. The arch-apostle of the Christian imperial mission brought ignominy on his own government and the empire he wished to promote. Gordon's journals as well as bestselling books by Europeans, most notably Slatin Bey, added to the Gordon myth by denigrating and demonizing the Sudanese. Some of these books were secretly funded by British military intelligence in Cairo.[5]

The Mahdi had explicitly ordered that Gordon should not be killed, perhaps because of the superstition that his own death would soon follow that of the British General's. Six months later the Mahdi died, probably of smallpox. The succession inevitably prompted religious and tribal disputes. The Khalifa Abdallahi had the best claim by his title ('the steward' of the *Umma*, Islamic community; Caliph in English). Equally important, his Black Flag division controlled the new capital of Omdurman. Having decisively outmanoeuvred his opponents, the Khalifa now wanted to fulfil his mentor's prophecy by spreading the jihad throughout the world, starting with the rest of Sudan.

Messianic movements had been emulated in the African Fur and Masalit tribes in Darfur. The Khalifa ordered his Baqqara tribesmen to suppress the revolt. The Khalifa's nephew, Mahmuud Ahmad, spent the next five years pacifying the Darfur region, but separatism there was never fully quelled. On the Ethiopian border, the *Ansar* had also been severely thrashed. After crushing a mutiny in the Mahdist army, the Khalifa regrouped his forces and sent them on a successful plundering raid against the ancient Ethiopian

capital of Gondor. Retaliation soon followed. The Ethiopian army, massively reinforced, was led by Emperor John IV himself. On the edge of defeat, the *Ansar* army triumphed because a stray bullet killed the emperor and his troops retreated in disarray. Mahdist soldiers also pushed south along the Nile deep into Equatoria. The south, west and east had been largely, if temporarily, pacified, but the success of the universal jihad depended upon a northern conquest: Egypt.

The 'soldiers of God' marched across the Egyptian border in the heat of summer in 1889. On 3 August, at the small village of Tushki, just north of Wadi Halfa, they were destroyed by the Egyptian army led by its new *sirdar* (commander-in-chief)), General Sir Francis Grenfell. Although the British officer had purchased his first two commissions, he proved on merit to be an able soldier, eventually reaching field marshal rank, by the time he retired in 1908. He had fought at Tel El Kebir, and in Sudan, most notably defeating the Mahdist army at the Battle of Suakin the previous December.

The *Ansar* commander, Abdal Rahman al-Nijumi, was killed alongside 1,200 of his men in a five-hour battle. Over 4,000 were captured. The victory demonstrated the improvement of the reformed Egyptian army, which in this battle had a core of only a squadron of British 20th Hussars. The *Ansar* had marched over seventy miles into Egypt, carefully avoiding the Egyptian garrison at Wadi Halfa, but it had not inspired any local popular support, unlikely anyway in such a remote area. The battle ended the Islamist threat to Egypt from the south.

The Khalifa in Omdurman obviously needed to re-valuate the Mahdi's prophecy of universal jihad. The north, populated by millions of Muslims, had been cut off. The far south was less promising: the terrain was tough and very few Muslims lived there. And Emin Pasha's forces continued to resist. In the early 1890s local warrior kingdoms allied with Belgian officers from the Congo Free State defeated Mahdist southern advances, Internal tribal antagonisms were intensified by military defeats as well as drought, famine and epidemics. Many Sudanese began to question Allah's blessings on the *Mahdiya.* Tribal revolts ensued and the Khalifa took years to ensure his dominance. Gradually, he tried to transform the Mahdist theocratic state into a more traditional Islamic monarchy in which the succession would pass to his son.

The re-conquest

For a while it appeared that Sudan was immune to the frenzied European 'scramble for Africa'. Not for long. Baring in Cairo was still determined to

concentrate on domestic reforms, but eventually he began to change his mind. The re-conquest of Sudan had little to do with revenge for Gordon or the need to subdue an Islamist state, and had everything to do with European politics. The British Conservative prime minister, Lord Salisbury, an energetic imperialist, decided to stop any other European power from controlling the flow of the Nile waters. The Belgians had shown interest in the region, so had the Germans, but the French, as always, were deemed the primary threat, epitomized later in the 1898 Fashoda crisis, which almost sucked the two imperial powers into war over Sudan. The British in Cairo became thoroughly alarmed by talk of French gunboats on the Nile and their (unlikely) erection of dams.

More immediate prompts for the British re-entry into Sudan were the perennial military difficulties of Italian armies. In March 1896, at Adowa, the Italians had suffered a humiliating defeat at the hands of the Ethiopian army under Emperor Menelik II. The Italian government formally requested a British military diversion in the north of Sudan to prevent a Mahdist assault on the weakened Italian garrison in the border town of Kassala. Lord Salisbury decided that an initial push into northern Sudan to seize Dongola was a suitable reply to the Italians and a convenient warning to the French. Baring had come to the conclusion that Britain had to re-occupy the Sudan to keep out other Europeans, and that he could get the Egyptian treasury to pay. It was a neat solution. This was a second-chance forward policy – on the cheap. Some British officers, however, cloaked their official imperial ambitions and personal sense of grievance over Gordon's death under a veil of humanitarian concerns for the perceived chaos in Sudan and the need to end the slave trade.

This invasion was methodical. A new railway was built into northern Sudan; it was a different gauge from the Egyptian system, a clear signal that the British intended to rule a separate southern state, distinct from Cairo, although the diplomatic niceties would still prevail. Gunboats, in sections, were re-assembled above the fifth cataract. Vast amounts of supplies and ammunition were prepared, all under the watchful eye of the new *sirdar*, General Sir Herbert Horatio Kitchener. He had been the last British officer to have been in contact with Gordon before the fall of Khartoum. So for Kitchener it was personal. Despite his stern and calm appearance, Kitchener was often full of anxiety about the success of his mission. He did not want to become the third British general to face an inglorious death at the hands of the Mahdists. He disguised his inner concerns with meticulous attention to detail.

In January 1897 the big push began. The Khalifa was unprepared – it took months for his western army to get into position. Infighting undermined the resistance, as ever. The western troops had to put down a defiant Ja'aliyyin rebellion with much bloodshed. After minor battles, the main confrontation took place on the Karari plain north of Omdurman, where Islamic end-timers believed that the infidel would suffer a final defeat before a great Islamic sweep through the Middle East.

At dawn on 2 September 1898, over 60,000 *Ansar* threw themselves with immense courage, and futility, against fixed positions, defended by Maxim guns and artillery, plus the supporting bombardments from the gunboats. As the waves of the soldiers of God fell back, the Egyptian army moved efficiently forward. By the late morning, over 11,000 Mahdist troops lay dead and another 16,000 were seriously wounded. The invading army of British, Egyptian and Sudanese brigades suffered around fifty killed. The battle included one of the last cavalry charges of the British Empire. A young Winston Churchill, who had inveigled himself into the campaign as an officer-correspondent – despite Kitchener's avowed dislike of journalists – took part in the charge. Kitchener was a great logistics expert, but not a good strategist: one of his columns was almost overwhelmed by a surprise *Ansar* attack from hidden reserve forces. Eventually, the Khalifa and his bodyguard retreated to the western deserts. Kitchener then led his officers to the ruined governor's palace to hold a memorial service for General Gordon.

Unlike the hapless General Lord Raglan in the poorly administered Crimean War, a media event which helped to topple a British government, Kitchener's personality dominated this war in Sudan. In the fall of Khartoum all European eye-witnesses and photographers had been killed. This time it would be different. Although he made occasional exceptions, Kitchener detested journalists, famously calling them 'drunken swabs'. Churchill had been an exception because he was an extremely well-connected young fighting officer, who had to pay his own way and accept all liabilities. Another exception was the *Daily Mail's* George Warrington Steevens, a 28-year old Balliol man who had described the general in glowing terms: 'His precision is so unhumanly unerring, he is more like a machine than a man.' Because of the massive popular domestic engagement with the war, Kitchener was persuaded to allow a small press contingent. They had to submit very brief reports (200 words per day) to the military censors before these were sent by military telegraph to Cairo. The military censored and manipulated the press to maintain support for the war in Sudan. Many of

the journalists, most notably Churchill, who wrote a bestselling book called *The River War*, hardly needed media management because they were usually as jingoistic as the military commanders. Nevertheless, critics in London raised voices of protest at triumphalism following the defeat of the Dervishes, as they were called in Britain. The dissenters noted that the Sudanese had fought a modern army while usually wearing chain mail and using ancient weapons. As Steevens conceded in the *Daily Mail*, 'It was not a battle, but an execution.' In addition, liberals at home excoriated the practice of killing the wounded, even though the military explained, correctly, that the Mahdists fought on even when severely injured. Lieutenant Colonel Charles Townsend, an eye-witness to the final 'Battle of Omdurman' as it was dubbed, noted: 'The valour of those poor half-starved Dervishes in their patched jibbahs could have graced Thermopylae.' Churchill's own account of the famous charge noted that the cavalry fought with equal weapons, the sword and the lance – though Churchill used a Mauser pistol as well. When describing the rest of the battle, he referred to British discipline and machinery triumphing over the most desperate courage and fanaticism of the Middle Ages colliding with the organization of the nineteenth century.

In September 1898 Kitchener completed his act of vengeance by ordering the destruction of the Mahdi's tomb at Omdurman by Gordon's nephew, after which the Mahdi's skeleton was to be thrown into the Nile. Public protests, including murmurings from the Queen, prevented Kitchener from sending the Mahdi's skull to London as a trophy (probably as an inkwell).

Very few photographs survive from the 1884-5 siege period, not least because a small Royal Engineer camera team perished. More than a decade later, many of the officers carried Kodak box cameras that had been developed in America in the 1880s. Seven journalists lost their lives in the second Sudan campaign. Others like Churchill made their name by writing an instant book. Steevens's book, *With Kitchener to Khartoum*, was published within weeks of the end of the war. These books helped to transform the later Lord Kitchener into an imperial icon – despite his professed dislike of the drunken swabs. Steevens's account was not entirely uncritical: he wrote about the eternal complaint of fighting soldiers, namely the poor quality of army boots. Nevertheless, he did play down the killing of wounded *Ansar* on the battlefield. Another eminent journalist, Bennett Burleigh, however, was not so discreet. Thoroughly annoyed by Kitchener's open hostility to him, he published critical stories about the British warrior.

Self-censorship, it seemed, had as much to do with personality, and potential book sales, as patriotism.[6]

Kitchener could not rest on his military or media laurels. He had to face a bigger threat than the Mahdists, a rival modern power: France. If you draw a line west to east of French colonial ambitions in Africa and a similar line from the Cape to Cairo linking British pink on the map, they would intersect approximately at Fashoda on the Upper White Nile. It is now called Kodok in the Republic of South Sudan, and remains a sacred place as the ancient capital of the Shilluk kingdom.

At the tail end of the nineteenth century, Fashoda's significance lay in a small riverside fort. In July 1898 after an epic fourteen-month trek from the south-west, Major Jean-Baptiste Marchand struggled into the isolated outpost. He had set out with just 132 men, including a small core of Belgian and French officers, but many succumbed to disease, not combat. They were supposed to meet another French force marching south from Djibouti (French Somaliland). In the previous vacuum of British imperial power in Sudan, the French wanted to claim the headwaters of the Nile. Out of contact with Paris, Marchand was largely unaware of the extent of recent British victories in Sudan. On 18 September, Kitchener and his gunboats arrived at Fashoda. The British general spoke fluent French (he had disobeyed orders as a young cadet by volunteering to serve in the French ambulance corps in the Franco-Prussian war). So Kitchener sat down and enjoyed an amiable dinner with the French junior officer. The British had the military advantage, and so the French talked. Both men got on very well. After dining on cigars and brandy, they decided to refer the dispute to London and Paris. As they waited for the decision, they agreed amicably to fly British, French and Egyptian flags at the fort. Despite calls for war in Paris, where the British displacement of joint Anglo-French control in Egypt in 1882 still rankled, the peace party prevailed. London conceded to French rights in Morocco, and the British were left to run Sudan and Egypt. What lay behind this unusual piece of Anglo-French cordiality was not just good sense, but also mutual fear of Germany's growing militarism not only in Europe, but also in Africa.

British imperial policy had triumphed. London now controlled the Nile from the great lakes to the Mediterranean. Sudan, Egypt and above all the Suez Canal were safely under their military control. The French left Fashoda; the only sign of their presence today is a small patch of iron crosses where brave French explorers succumbed to disease, not British guns. That is all that remains of the Napoleonic dream for France to bestride the Nile,

after the French campaigns of 1798-1801. The final postscript to Kitchener's conquest came on 24 November 1899. Colonel Sir Reginald Wingate cornered the remnants of the Mahdist army near the present town of Kosti. The Khalifa and his bodyguard were killed. Kosti is home today to the El Imam El Mahdi University, established in 1994. It is of course named in honour of the leader of the *Mahdiya* revolution.

The death of the Khalifa spelled the final demise of the *Mahdiya*. Sudanese independence had been snuffed out by imperial decisions taken in London and Cairo. It had taken sixty years for the Sudanese to rise up and throw off the Egyptian yoke by force; it would take just over sixty years for the British to leave and allow the Sudanese, finally, to rule themselves.

Chapter 2

British Rule

Despite the formal description of an 'Anglo-Egyptian Condominium', Sudan was now effectively British territory. Evelyn Baring, raised to the peerage in 1893 as Lord Comer, dreamed up this confection. Thus the colonial power reversed the original ambition of Khedive Mohammad Ali to unite the Nile valley. London had expended much blood and gold to retain Sudan; the imperium was not about to hand it back to Cairo, especially after the martyrdom of Gordon and the Battle of Omdurman. British commentators felt that the Mahdist revolution had been partly the result of long years of Turco-Egyptian misgovernment. Now Britain would provide an honest and efficient administration.

For the next half-century Sudan was left largely to its own devices, except when issues of imperial security were concerned. Several Mahdist pretenders emerged, but they were easily suppressed. Nevertheless, they reinforced a general British mistrust of political Islam. British rule was strongest in the central areas of habitation along the Nile. Peripheral areas remained largely untouched until they posed a threat to the centre. Darfur, for example, was not conquered until May 1916 when Sultan Ali Dinar rose up when the Turks joined the German side in October 1914. In a brief campaign, the British crushed the Fur army just outside El Fasher and the Sultan was killed. The former palace of Ali Dinar in El Fasher is now a run-down museum, with a few artefacts of the sultanate. I last visited the small but charming 'palace' in 2004, when a new war had begun in the region. The museum's curator was a diligent man, but he had not been paid in a while and he had no money to maintain one of the few surviving relics of Darfur's independence.

In the south, the Khartoum government did little except make the *Sudd* more navigable. British officers from the Egyptian army ran a skeleton administration while encouraging British Christian missionaries to spread their religion and language as a bulwark against the advance of Islam. Arabic was actively discouraged as were northern Muslim merchants. Egyptian and northern Sudanese officers and troops were removed and they were replaced

by locally raised troops under British officers using English as the language of command. They formed the Equatorial Corps.

The north was administered by a coterie of mainly Oxbridge graduates, fluent in Arabic, who comprised the Sudan Political Service (SPS). By and large, this small elite – about 400 in all in the fifty years of its existence – ran the north with an efficient, independent and honest paternalism. But the SPS had a modicum of central direction. This was not the case in the south where officers contracted from the British army – known as 'Bog Barons' – ruled their vast satrapies through the power of their own often quirky and flamboyant personalities. They learned the local African languages and ruled sometimes as if they were paramount chiefs. As long as they kept order, they were left to their own devices. Collectively, this created a muddle because the British could not make up their minds what to do with the south. This characteristic British style of 'muddling through' lasted for nearly fifty years and it had a terrible legacy. The Arabs in Khartoum were trained by the colonialists to focus on Egypt, the centre of British power. As a consequence a succeeding generation of Arab administrators grew accustomed to ignoring the south and the west. And, historically, neighbouring states held as much sway, if not more, over the east, west and south as Khartoum did. This was a recipe for endless border wars.

The possibility of north-south conflict was not yet on the horizon. The British were initially more concerned not only about the revival of Mahdism, but the possibility of conflicts between the two main Islamic sects, the *Ansar* (which later transformed itself into the Umma Party) and the *Khatmiyya* (which formed later the Democratic Unionist Party). Both sects were hereditary family affairs that were to produce decades of political in-fighting in Khartoum. Eventually a more powerful Islamic group, the Muslim Brotherhood, which morphed into the National Islamic Front/National Congress Party, became dominant. When the British destroyed the Mahdist movement, they scattered the seeds of Islamist regeneration for a century.

Under strong and able Governors General such as General Sir Reginald Wingate (1899-1916) Sudan began to prosper. Wingate had earned his spurs during the Mahdist war as an intelligence officer fluent in spoken and written Arabic. His more famous second cousin, Orde Wingate, also became an Arabic-speaking intelligence officer in the Sudan Defence Force. Both Wingates were highly opinionated and independently minded. Sir Reginald Wingate did less well when promoted to service in Egypt as High Commissioner; characteristically, he refused to go, even when his replacement, Lord Allenby, had already arrived.

Sir Reginald Wingate is remembered now in Sudan for his reforms in education. In 1902 the Gordon Memorial College was set up to educate carefully selected sons of the riverine Arabs as well as some southerners. Much of the funding came from public subscription in Britain, as the Khartoum treasury was still dependent upon parsimonious Egyptian grants. The curriculum was designed to create clerical skills to enable the students to aspire to lower-ranking civil service posts at most. There was no hint yet of training for self-government. Orthodox Islam, not *Sufi* rituals, was encouraged by government-selected imams. A parallel system of orthodox judges was established to settle personal and domestic disputes in *sharia* courts.

In the wake of devastation caused by two decades of war, economic development was a priority. Labour shortages became acute in a population reduced to perhaps only two million inhabitants. The slave trade was outlawed again, but immediate emancipation at a time of manpower shortages would have precipitated a political upheaval. Slavery in a number of forms remained. The major British achievement was the Gezira cotton scheme that soon provided many jobs and eventually a budget surplus for Sudan. This reduced Sudanese dependence on Egyptian government grants.

In late 1914 the British deposed the Egyptian Khedive for his dalliance with the Turks. They installed a pliant replacement, despite nationalist outrage. Some extra employment was created by the war effort, but the abrupt demobilization of the Egyptian Labour Corps in 1918 boosted existing high unemployment rates. In addition, the logistical costs of Egyptian involvement in the Great War, and the principles of self-determination announced by US President Woodrow Wilson, helped to inspire, in 1919, a popular revolt against British rule in Egypt. The nationalists in Cairo demanded independence for both Egypt and Sudan. Egyptian independence as a constitutional monarchy was secured in 1922, except in crucial reserved areas such as foreign affairs and defence. Sudan was explicitly excluded. But how could the tiny Sudanese educated elite be inoculated against the virus of Egyptian nationalism? The British answer, as in much of colonial Africa, was 'Indirect Rule'. The urban educated elite was bound to grow with economic and educational progress. The British sidestepped this problem: in north and south tribal leaders would be co-opted. This suited many traditional leaders in Sudan, and the British SPS officials believed they were reflecting genuine nationalist feeling; the traditional leaders often regarded educated urban Sudanese as *effendi,* a name given to alien bureaucrats in the *Turkiya* and Condominium. Ironically,

one of the unintended consequences of indirect rule was to confer more authority on the traditional leaders in the *Sufi* orders and the remaining *Ansar* at the expense of modernizing secular nationalists. Thus, 'Islamism in one country' was boosted.

For a while it seemed to work. During the 1919 Egyptian uprising, the urban Sudanese elite did not rise up to join their brethren in the north. Part of the reason was a splitting of opinion that would undermine Sudanese nationalism until independence: should Sudan aspire to become a solo state or merge with its big brother, Egypt? Tiny organizations began to form advocating both outcomes, but for the time being British vigilance kept their activity and publications limited to cultural assertion. Ali Abdel Latif founded a more explicitly political organization, the White Flag League. He was an unlikely man to become a prototype nationalist leader, especially to the conservative riverine leadership. For a start he was a southern Dinka; moreover, he had been born into a slave family in Egypt. But he was a Muslim with obvious leadership skills, honed at the Gordon College and the Khartoum Military School. He was cashiered from the army for insubordination, said the British; he claimed he was a victim of the extraordinary arrogance of a British officer. Demanding self-determination, not unity with Egypt, he was imprisoned for three years for his political agitation, reduced later to one year. Upon his release, he became a national hero. Egyptian support, both financial and political, encouraged him to recant his original views on Sudanese self-determination and instead advocate the Egyptian nationalist line of 'Unity of the Nile Valley'.

British rule relied ultimately on military force. In 1924 Latif's imprisonment spawned anti-British demonstrations. A revolt by the Railway Battalion of the Egyptian army was suppressed by British troops. Then fifty Sudanese cadets at the Military School in Khartoum also mutinied. They surrendered without a fight, the leadership was imprisoned and the school was closed. The Governor General, Sir Lee Stack, warned of 'drastic action'. Shortly afterwards, on 19 November 1924, he was assassinated in Cairo by an Egyptian nationalist.

Military reform now became imperative. The Egyptian army was repatriated from Sudan, sometimes under the barrels of British machine guns. The troops boarded their trains quietly. Sudanese officers were not so quiescent. They were torn between their formal oath of allegiance to Egyptian King Fuad and the respect many of them felt for their superior British officers. Units of the XIth Sudanese Battalion marched through the streets of Khartoum on 27 November. When they refused to disperse,

British troops opened fire on their comrades. The Sudanese fought back. Over thirty people were killed, including fifteen British soldiers. Three Sudanese mutineers were later executed.

The British had operated on a divide-and-rule principle in Sudan, assisted by the Rubik's Cube of contending religious, political and tribal diversity. The development of central political movements that could challenge imperial rule was suppressed or subverted. Yet, paradoxically, the British now set about fashioning what became a central pillar of national identity for the next ninety years – the Sudanese army. Initially, of course, it was intended as an implement of imperial fiat.

Forging a Sudanese army

The Sudanese Defence Force (SDF) was established in 1925 as a response to the turmoil of the previous year. Until then Sudanese served in separate infantry battalions of the Egyptian army under British and Egyptian officers. These were described as Arab or Sudanese battalions. The Egyptians were recruited through annual conscription, but Sudanese units comprised long-serving volunteers. Now the ejected Egyptians were replaced by Sudanese junior commissioned officers and NCOs. A new cadre of officers was trained in Omdurman, most of them northern Arab Muslims. The command and control still rested upon the shoulders of British officers; 140 Britons were transferred from the Egyptian army. The initial strength of the SDF was around 4,500 to 5,000 volunteers, although it expanded rapidly during the Second World War.

As a precaution, the British always kept a battalion of their own troops in the capital. With the disbandment of the old Sudanese battalions, which were designated by numbers, the new approach tried to develop a regional loyalty, not unlike the traditional British regimental structure based on county affiliations. Now the regional order of battle was:

Equatorial Corps in the south
Eastern Arab Corps
Western Arab Corps
Sudanese Camel Corps
The Shendi Horse

They were supported by specialized branches such as artillery, engineers, armoured car and machine-gun units, as well as the standard medical, signals and transport services. Although English was the language of command,

Turco-Egyptian rank structures for officers and men survived. A major, for example, was still called *Bimbashi*. The SDF's primary initial role was internal security, to support the police and provide garrisons that could fly the flag around the vast country. In the late 1930s, facing threats from the Italians, a Sudanese Frontier Force was established. Also, special irregular units were created later: for example, Gideon Force led by Orde Wingate.

Orde Wingate spent the years 1928 to 1933 in the SDF. His relative, General Sir Reginald Wingate, recommended him, thus cutting across the regulation that British officers had to have held a commission for five years and that a British officer serving in the SDF had to sponsor him. Connections were always important in the British military system. Captain Wingate was promoted to *Bimbashi* (major) and posted to the Eastern Arab Corps to patrol the border with Eritrea. He was based in the Dinder area, a mixture of desert scrubland and thick thorny forests, split by river beds and small streams. It was largely unmapped and unexplored. This is where the future general did the groundwork for his guerrilla theories, by fighting the *shifta* bandits poaching or slaving from Ethiopia. Wingate took part in the regular joint SDF operations with the Royal Air Force, flying Fairey 111Fs of 47 (Bomber) Squadron, not least against another Mahdist uprising in 1928. He took the opportunity to risk his first flight in one of the Fairey biplanes, travelling from Kassala to Khartoum. Wingate enjoyed the sight of hundreds of elephants below him, but he was violently sick – over the pilot. He never liked flying and often had premonitions of death, not least in an aircraft.

During his years in the SDF Wingate developed his theories of small independent strike forces, sometimes operating with air support. Despite his anti-social reputation later in his career, and his usually well-hidden bouts of depression, Wingate was well-respected in the SDF, not least for his polo skills, though he was warned once by his CO not to discuss politics, especially Marxism, in the Officers' Mess. Before Sudan, Wingate was in danger of being booted out of the army, but independent command in a wild country was the making of him. Wingate and T. E. Lawrence are often compared: both men pushed themselves physically beyond normal endurance; both were effectively misfits in their own societies and came to champion 'others' as a chosen people. Lawrence became obsessive about the Bedouin and Wingate risked his career helping the Zionists in Palestine. They probably never met, but Wingate was later scathing about Lawrence, calling him a charlatan, though their very divergent views of Arabs and Jews may have had something to do with that hostility. Wingate was to return to

Sudan during the 1939-45 war, which would test the Sudanese military reforms of the inter-war years.

The military reforms were partly based upon encouraging local identity for the various corps. But the central political process from Khartoum tended to support ethnic rather than regional leadership, which was not always the same thing. The tribal structures in the north were often distinct. It was much more difficult in the south. The most populous tribes were the Nuer and Dinka who tended to avoid formal chief or kingship structures and instead relied more on spiritual leaders or prophets. Frustrated British district commissioners sometimes had to invent chieftains or back nonentities with little following, or even hunt for elusive 'lost tribes'. Education slowly developed in English in the southern missionary schools. In the north, primary schools were expanded, often with more emphasis on orthodox Islamic teaching, with rote learning of the Koran, rather than secular education. Secular nationalists in Khartoum accused the British of a concerted policy of separating north and south via separate language and educational policies. It was more accidental drift and pragmatic adaption to local circumstances rather than devious intent, however. British officials worked with the grain in the areas they administered with little more in mind than to preserve the status quo. 'Disturbances' in the south were often met with punitive raids, especially against the Nuer, who would vanish into the *Sudd* or across the Ethiopian border.

Rising economic prosperity in the north also helped to dampen discontent. Government-funded major projects such as the Sennar Dam increased the area of irrigated land. The Gezira scheme, originally set up in 1913, added to the incomes of tenant famers. Just south of Khartoum, it was one of the biggest irrigation schemes in the world. The cotton was actually managed by a private company, the Sudan Plantations Syndicate, but government kept a benevolent eye on prices and wages. Sudan enjoyed ten boom years courtesy of King Cotton, but the 1929 crash hit the single-crop economy very badly. And effective labour unions were still more than a decade away.

Gradually, in the senior echelons of the Sudan civil service, it was understood that 'native administration' in south and north could not rely upon just enough education to produce clerks and accountants to populate the lower rungs of government. In the south conditions remained backward – the Foreign Office suddenly discovered in 1936 that not a single government school existed. The quality of Christian schools varied enormously. Often, the squabbles between Catholic and Protestants began

to match the sectarian schisms in the north, where educational standards improved rapidly in the 1930s. Teacher training colleges, schools of law, engineering, medicine and agriculture were introduced. Even the Gordon Memorial College was reformed, although it was not renamed as Khartoum University until 1951.

Improved education inevitably meant bigger educated elites. In 1938 a Graduates' Congress was formed. By the early 1940s embryonic political parties had been forged. The rising nationalism was spurred by some Sudanese opposition to the country's involvement in what they dubbed a British war in 1939. They wanted emancipation from the British – 'Sudan for the Sudanese' – but still could not decide whether union with Egypt was the answer or, conversely, a return to a different foreign domination. Secular and sectarian rivalry still tore at the heart of Sudanese nationalism. The orthodox fought the more mystical branches, while the *Ansar* and the *Khatmiyya*, one of the largest *Sufi* orders in the Middle East, argued with secular modernisers. Egyptian union or not was the key debate, but other issues such as a theocratic or socialist state were passionately dissected. In 1943 the British set up an Advisory Council to incorporate the limited and polite demands of the moderate urban intelligentsia. But the British were unlikely to make any major concessions until after the Second World War.

The 1939-1945 conflict transformed the Sudan Defence Force. Most of the officers were still British on secondment for two years' probationary period, with a maximum of five years, when officers were expected to return to their own regiments. The attractions in Sudan were a local one-rank promotion, independence of command, and often a more expansive lifestyle including large accommodation and servants as well as desert exploration, archaeology and sport, especially game hunting. Some of the Oxbridge men in the Sudan Political Service were also allowed to join the colours. When Italy declared war on Britain in June 1940, the SDF went on the defensive at first to prevent encroachments from Italian-occupied Abyssinia and Eritrea. The Italians seized various small border towns and villages in Sudan; the most significant was the railway junction at Kassala. In August a small irregular force of Eritrean troops raided as far north as Port Sudan.

The first Italian campaigns in Abyssinia had been a shambles; they had been thrashed at the Battle of Adowa in 1896. Bloodied in the Great War and partially modernized by Mussolini's fascist revolution, the Italian army's second try in 1936 was much better organized. The savagery of the war has tended to be under-estimated partly because of the legacy of perhaps

the most famous, and funniest, book on journalists at war, Evelyn Waugh's *Scoop*. Most Western correspondents disliked the bombastic Italian fascist leader, Benito Mussolini, and favoured the underdog, Emperor Haile Selassie. Poison gas was used extensively by the Italians, though the war was shrouded in as much propaganda as gas clouds. One historian claimed that 99 per cent of the photographs were faked. The barbarism on both sides was not. [2]

Waugh and others have tended to create the image that the Italians always fought badly. During the Second World War they fought very hard indeed to retain their East African empire (*Africa Orientale Italiana*). In Abyssinia/Ethiopia alone, fascist officers commanded a force of 250,000 Italian and local troops. After the initial incursions into Sudan, in October 1940 the British foreign secretary, Sir Anthony Eden, convened a major imperial summit in Khartoum: in attendance were British generals from the Middle East and India as well as General Jan Smuts, the South African who was deputizing for Winston Churchill. Before eliminating Italian armies in North Africa, the decision was made to tackle the fascists in the east. A three-pronged attack was devised, from Sudan into Eritrea and Ethiopia and into Ethiopia and Somalia from Kenya in the south.

Although British and Indian army troops (as well as South African and Southern Rhodesian elements) were to take part in this major offensive, manpower was short. The decision was made to beef up the Sudanese forces. The years of training under British officers and experience with the arduous climate and terrain encouraged the top brass to use some of the best Sudanese troops to form what today would be called special forces. Then they were termed irregular units for reconnaissance and strike operations. In October 1940 three mobile machine-gun companies became part of Gazelle Force, led by Colonel Frank Messervy, an Indian Army officer who was later to become the first commander of the Pakistan Army. Elements of the Frontier Battalion were placed under the command of Major Orde Wingate, who had previously served for five years in the SDF. He called this second unit Gideon Force, after the biblical Judge Gideon who commanded a small band of Israelites that vanquished a large army. Wingate always led from the front and was undoubtedly brave, but odd personal habits — such as not bathing, eating raw onions and garlic while attending meetings, or frequently addressing visitors to his quarters while totally naked — did cause disquiet among his commanding officers. He was also an ardent Christian mystic and supporter of Zionism. Wingate had spent much of the 1930s in Palestine, where he had used highly unorthodox methods while

leading his Special Night Squads of Jewish and British troops during the Arab revolt of 1936-39.

The controversial apostle of irregular warfare arrived back in Khartoum on 6 November 1940. Wingate famously said, 'A thousand resolute men can paralyse 10,000.' As in Palestine, he chose resolute men as his commanders; one of the most famous was the explorer and Arabist Wilfred Thesiger. Other more conventional units of the SDF, including artillery forces, took part in the big push in January 1941. Gazelle and Gideon Forces proved very effective, not least in linking up with Ethiopian partisans who fought vigorously for their emperor. The major battles of the campaign took place in February and March 1941 around Keren on the road to the capital of Eritrea, Asmara. The Italians often fought as skilfully as elite German paratroopers and inflicted heavy casualties on experienced Indian Army troops and British Highland regiments. Eventually, however, the Italians were overwhelmed.

Sudanese military activity on the eastern front was over except for occupation and border duties. Gideon and Gazelle Forces were disbanded in the early summer of 1941. They had proved their worth and many Sudanese soldiers went on to fight with even more famous units in the main front in North Africa. Wingate continued to develop his original theories of guerrilla war by leading much bigger formations of Chindits in Burma. Many of his colleagues thought him quite mad, but he proved a very effective guerrilla leader in Palestine, Sudan and, finally, Burma, where, as a major general, he died in a plane crash in March 1944. Meanwhile, his small-unit adherents in the SDF had worked closely with the Long Range Desert Group (LRDG) – among the forerunners of the Special Air Service – in south-eastern Libya. The SDF was used to supply the LRDG and Free French outposts in the Italian colony of Libya. French forces under Colonel Phillipe Leclerc had advanced over almost inaccessible desert from Chad in French Equatorial Africa. Anglo-French units took oases and a fort during the battle of Kufra in March 1941. Re-supply was very challenging because of local Italian air superiority. The Libyan-Sudanese border area, largely desert or scrub, was used by the SDF to run supply trucks; later they took over garrison duties at the Kufra oasis. The SDF also engaged in highly secret operations to prevent German commandos infiltrating into Egypt. SDF personnel also worked with British military intelligence to interdict German secret agents hoping to encourage an Egyptian uprising against the British rule.

By the end of the world conflict in 1945 the SDF could boast of 'a good war'. Its seventy Sudanese officers had shown distinguished service in

conventional and irregular warfare throughout north and east Africa. As independence hovered on the horizon, more and more local officers replaced their British counterparts. By March 1954 British troops in the Sudan comprised one battalion stationed in Khartoum. The SDF was under British command, but the deputy commander was Ibrahim Abboud. Born in Suakin in 1900, the future Sudanese general served in Egypt and Iraq, as well as in operations in north and east Africa. General Abboud took over as commander in chief of the SDF at independence. Initially, he remained aloof from politics, but he headed the only disciplined and centrally controlled institution in the country. The most enduring legacy of the British was not constitutional democracy, English education or the rule of law, but an effective, battle-hardened national army's pivotal role in Sudanese life.

Moves towards independence

The same could not be said of any of the burgeoning political parties. In June 1947 the British and Sudanese from north and south met in Juba where they agreed on a unified Sudanese state and a future joint assembly in Khartoum. Southerners at the time felt that their lack of educational and political experience left them at a severe disadvantage in these negotiations; later southern historians claimed the Juba meeting was a complete fix. Nevertheless, in December 1948, the British set up the first legislative assembly, comprising seventy-five members – some were elected and others nominated, with thirteen seats reserved for southerners. Encouraged by the British, the dominant Umma party in the Sudanese assembly rejected strong Egyptian pressure for union. In 1951 the Egyptians unveiled a new constitution for a unified Egypt and Sudan, without consulting the Sudanese, which naturally irritated many Khartoum leaders. By 1952 the majority in the Legislative Assembly was pushing for independence.

Enter a new player. The US government deployed its fresh status as a post-war superpower to persuade an exhausted and near-bankrupt Britain to resolve the 'Sudan Question' with a formula that would not antagonize the Egyptian Crown and government. Washington was regularly to intervene against British interests in the Middle East, arguing that the USA had not fought the Second World War to maintain the British Empire.

The international debate on the Sudan Question was dramatically interrupted on 23 July 1952 when the Revolutionary Command Council overthrew King Faruk. The overthrow of the King shook up the Middle East, including Sudan. The revolution was forged by young Egyptian army officers, led by General Mohammed Naguib. He was half-Sudanese and had

were Sudanized, but only a handful went to southern officials working in the south. The northerners now parroted the well-worn colonial argument about the lack of qualified southerners. This was true, but racist and religious bigotry underlined the northern domination of the Sudanization process. The future prime minister, Ismael al-Azhari, dismissed the 'childish complaints' of the southerners. Gregoria Denk Kir, a southern businessman, aptly summarized the bitterness felt in the south: 'As it appears, it means our fellow Northerners want to colonize us for another hundred years.'[3] The reluctant and meagre inclusion of southerners in the quick march to independence implied not only northern colonization, it was also a portent of decades of warfare.

Northerners, alien in terms of religion and language, came south to run the 'hewers of wood and drawers of water'. Too late, southern political leaders started agitating for a federal system to protect their interests. In July 1955 a dissident southern MP was arbitrarily sentenced to a long prison term. His followers rebelled and troops had to be called in. At Nazara, a centre of the local textile industry, police killed eight protestors. Widespread revolt in the south appeared imminent and the army was the ultimate guarantor of security. Would the southern troops remain loyal to Khartoum?

Rumours of northern retaliation spread throughout the south. The garrison of the Equatorial Corps, renamed the Southern Corps, based at Torit, was particularly agitated. No. 2 Company was about to be posted to Khartoum in preparation for the independence celebrations, but word spread that on arrival they would be enslaved or massacred. The southern soldiers broke into the armoury on 18 August 1955 and used their weapons to kill northerners in the area – their officers, merchants and women and children. The rebellion spread like a bush fire to Juba, Yei and Mandi. Northern officials were killed indiscriminately. Northern administrators fled from Wau, leaving southern police in control. The British, with hardly any military forces remaining, kept out of the fray. Hundreds of Sudanese were killed in the south, most of them northerners. It took over two weeks for northern troops to be flown in to restore some order. Most of the mutineers fled into the bush, the first nucleus of a guerrilla army. A few surrendered, were tried and executed.

The knee-jerk northern bitterness at the indiscriminate killings soon hardened into a concerted policy of military control in the south, rather than political reconciliation. To southerners the revolt in Torit on 18 August 1955 became D-Day of the southern Sudanese armed struggle. The small town of Torit became the popular focus of the southern cry for freedom. The last

been educated in Sudan. General Naguib became Egyptian prime minister in September and changed the policy on Sudan. The leading Sudanese parties were consulted and encouraged to demand immediate self-government from the British. Elections were held in Sudan in which the National Unionist Party (NUP), led by Ismael al-Azhari, won a majority of fifty-one seats in the ninety-seven-seat House of Representatives, with the Umma party trailing with twenty-two seats. The Southern Party won ten seats. In the new senate, the NUP did even better. The pattern of voting was strictly along sectarian lines, reflecting age-old disputes about Islam and politics. In the south this did not apply, but the NUP had taken three seats there, partly because of the lack of educated candidates, as well as the generous distribution of cash and hyperbolic but worthless promises. This was to set a template for future north-south relations.

On the surface the NUP victory meant a popular vote for union with Egypt. In reality, however, it reflected the widespread desire for the British to quit as soon as possible, whatever the name of the party that could achieve that goal in the shortest time. Lingering hostility to Egypt was demonstrated in March 1953 during a state visit by General Naguib. Sayyid Abdel Rahman, who led the opposition to the NUP, organized over 50,000 rural *Ansar* to come to Khartoum. They tried to storm the Governor General's palace. Ten policemen were killed including their British commander, who was hacked to death. Troops were called out and more demonstrators were killed. The British authorities persuaded Sayyid Rahman to order the *Ansar* to go home; the forthcoming ceremonial opening of parliament was cancelled and General Naguib quickly flew back to Cairo.

The riots surrounding Naguib's visit forced most Sudanese leaders to accept the need for independence. Naguib's local origins prompted support from some Sudanese, but he was displaced in a coup, led by Colonel Gamal Abdel Nasser, who was far less popular in Khartoum, despite his own (brief) military service in the country. Nasser consolidated his position by ruthless suppression of the communists as well as his erstwhile allies, the Muslim Brotherhood, establishing a pattern of army-Brotherhood antagonism which was to fester for decades and erupt once more in the 'Arab Spring' of 2011, and lead to mass killings and executions by the army in 2013/14.

The revolutionary turmoil in Egypt in the early 1950s heralded the hasty imperial recessional in the region. At the start of 1954 British officials in Sudan were rapidly pensioned off with generous payments, which the Sudanese leadership accepted as much cheaper than an armed insurrection and more peaceful than the chaos in Egypt. Hundreds of civil service posts

British troops, the 1st Battalion Royal Leicestershire Regiment, had left the country on 16 August 1955. In the British military vacuum, the minority of pro-Egyptian politicians in Khartoum debated whether they should ask for Cairo to intervene during the so-called 'Southern Sudan Disturbances'. Such an option was anathema to nearly all members of the House of Representatives. On 19 December 1955 they voted unanimously to declare Sudan independent. On 1 January 1956, at a hastily organized ceremony, the flags of Egypt and Great Britain were lowered and the flag of the new Republic of Sudan – three horizontal stripes of red, white and black – was raised.

On New Year's Day 1956 the Sudanese took over political and military control (although a few British Army instructors and advisors would remain). Foreign rule was over. In order to maintain unity Sudan would now have to solve its southern problem on its own. Whether this was to be done peacefully or via war depended on the quality of the new rulers in Khartoum. Decolonization was starting to electrify the whole of the continent. So what would independence bring to one of the first African states to assert its freedom?

Chapter 3

Failed Democracy – Failed Coups (1956–1989)

<u>First years of independence</u>

Independent Sudan began with much optimism. The new government was dominated by the National Unionist Party, led by Prime Minister Ismael al-Azhari. Khartoum could now unify the country, not least by ending the conflict in the south, and economic reforms would bring prosperity to a Sudan that could be a beacon in the Arab world and a decolonizing Africa. A similar pattern emerged in many African and Middle Eastern states after their independence. Foreign oppressors had been driven out and, almost by definition, it was believed, the nascent nations could achieve their true potential. Sadly, the soaring rhetoric of freedom, democracy and financial development soon degenerated into military intervention and economic stagnation.

Sudan faced two primary challenges: internal ones which required good governance, and external ones which demanded sound diplomacy. Revolutionary rule under Colonel Nasser in Cairo bolstered the position of the Egyptian army, and enhanced military authoritarianism throughout the Middle East, although Nasser did also flirt with multi-party-democracy, as well as with the communists and the Muslim Brotherhood. His initial obstacles involved the imperial overlord, Britain. Because of disputes with American funding for the planned Aswan Dam, part of Nasser's retaliation was his nationalization of the formerly French company which operated the French-built Suez Canal. Cairo had waited until the last British troops had left the Canal Zone months before. London portrayed Nasser as another Hitler, and Paris was incensed at Egyptian succour of the Algerian insurgency against French rule. Anglo-French forces, in secret collusion with Israel, invaded the Canal Zone in October 1956. It was a military and political fiasco, especially when the Americans threatened a run on the pound if London didn't stop. Britain was humiliated and Nasser was lauded

as a hero in the Arab world. While proclaiming non-alignment, Egypt shifted towards the Eastern camp in the cold war, especially because of Nasser's need for Soviet weapons. Sudan could not stand entirely aloof from the cold war tensions, not least because disputes with Cairo over the Nile dams' costs were to play into domestic political tensions in Khartoum.

Sadly, practically anything could play into Khartoum's political tensions. Within six months the Azhari-led government collapsed because of parliamentary defections. Considering the Azhari team too secular, more conservative parties, the Umma and the new People's Democratic Party, formed a government which tottered along for two years. It proved almost incapable of any governance because of sectarian clashes and petty personal squabbling. Adding to the misery, the price of the main export – cotton – tumbled. The country was left with massive stocks of unsold and then unsellable cotton, created by Sudan's rigid pricing policy. The USA made tempting offers to ease the economic crisis and to boost development programmes. The Umma party was eager to accept Western aid, but others in the coalition believed that the US, frustrated by Nasser's tilt to the Soviet bloc, wanted to isolate Sudan from Egypt and other Arab states.

On the international front, Sudan tried to stay aloof from Nasser's grandiose plans for Arab unity. In early 1958 Nasser's advocacy of unity with Syria became reality – the United Arab Republic was formed. Yemen was also brought into the fold. Nationalism, however, was always going to transcend such a flimsy construction. In particular, the Syrian military grew disaffected. The Cairo-Damascus nexus was soon to be dissolved in a delicious scandal. In a gesture of reconciliation Nasser sent Abdel Hakim Amir, his closest friend, vice president and commander of the Egyptian army, to Damascus to settle the grievances. Though popular with the Syrian military, the handsome womanizing Amir was not a natural trouble-shooter. Syrian military intelligence, of course, tracked his every movement and soon realized that he was spending more time carousing with an Algerian singer than resolving the acute Syrian-Egyptian imbroglio. Finally, military intelligence officials roused Amir from his bed in the middle of the night and, in a deliberate act of malice and public ridicule, put both Amir and his paramour, in their night clothes, on a plane for Cairo. (It is not recorded whether Syrian intelligence was malicious enough to arrange for Amir's wife, Berlenti – a beautiful actress famed for her seductive, and fiery, film roles – to meet them at Cairo airport.) A national uprising in Syria soon followed this public humiliation and most Syrians rejoiced at the end of what they dubbed the 'Egyptian occupation'. Nasser's intervention in Yemen

– along with 70,000 troops – also ended badly. His foolish involvement in the civil war made Israel very happy, but it emptied the Egyptian treasury. Nasser later had to withdraw his troops in another humiliating retreat. Such debacles were bound to influence negatively Sudanese leaders, especially those who still nurtured notions of re-union with Egypt.

The first coup

As ever, Sudanese domestic politics were in turmoil. By November 1958 the new breed of politicians had failed. People looked to the army to unpick the domestic and international tangles. On the morning of 17 November 1958, hours before the new parliament was due to meet, the commander in chief, Major General Ibrahim Abboud, ordered his men to occupy the three central and contiguous towns of Khartoum, Khartoum North and the old Mahdist capital, Omdurman. Abboud abolished the trade unions and political parties and locked up government ministers under a state of emergency. Unlike Nasser, however, Abboud was not a political animal. He had a popular fatherly image with no apparent political ambitions, except to reflect the general anger with the squabbling and corrupt political class. The country needed to be governed efficiently, but the freshly minted Supreme Council of senior officers had no ideology and no plan. The Supreme Council did, however, reflect a degree of religious and tribal cohesion. The military rulers were mostly affiliated to the *Khatmiyya* sect and hailed largely from the riverine elite of the Shayqiyya and Ja'aliyyin tribal coalitions. The rank and file, however, were mostly from the peripheral marginalized tribes: the Nuba, Dinka, Fur and Baqqara.

Despite their discipline and smart uniforms, the members of the Supreme Council were not immune to personal squabbling. Troops from the eastern region, whose commanders had not been given a seat in the council, marched on Khartoum in March 1959. They besieged the capital and surrounded the residence of General — now President — Abboud. The chief mutineers were appeased and Brigadier Abdel Rahim Shannan, in particular, was brought into the council. Nevertheless, the dissidents still felt they were being sidetracked. On 22 May Brigadier Shannan led another march on Khartoum. This time, the other council members had had enough of indiscipline. The eastern commanders were arrested and court-martialled for mutiny and sentenced to death; the dissident troops were sent back to barracks. The Supreme Council was unsure of its supremacy or popularity in the country, and it was even more uneasy about its backing in the professional officer corps. In November, Colonel Ali Hamid led a rebellion of radical junior

officers, supported by an infantry battalion in Omdurman. This was different. Throughout Sudan's history the peripheral regions had rebelled – sometimes almost in a ceremonial fashion. Appeasement or punishment might be expected. Mutiny in the centre was much more dangerous. The revolt of junior officers was brutally suppressed: they were summarily tried and hanged in public. That was *not* customary in the Sudanese tradition. On the contrary, Sudanese have always prided themselves on bloodless revolutions. It has become a popular myth, extolled with much gusto, and historical inaccuracy, even today.

The years 1958 and 1959 established a pattern: a bunch of incompetent politicians would be replaced by slightly less incompetent military officers, via a coup, followed by another attempted coup or even two. The earliest putsches did promise much. After all, it was a time of coups in Muslim states – in Pakistan, Iraq and Egypt. And they seemed successful at the time. Egypt's example was especially influential on Sudanese events. The style – ideally, initially bloodless – was the same; as was the installation of a popular figurehead. Nasser had used the respected General Naguib, and likewise the Sudanese plotters had paraded the affable fatherly figure of General Abboud as their front man. Sadly, Sudan was soon to teach Egypt a thing or two about how to, and how not to, stage coups.

President Abboud was too honest to be a politician. He believed Nasser's promises about the Aswan dam – 'soldier to soldier', he thought. In 1960 construction began on the long-delayed High Dam at Aswan (and the Sudanese started on smaller dams). The Egyptian dam immediately produced a large displaced and disaffected Nubian population that had to leave their ancestral lands and eventually, decades later, it had created countless tons of Ethiopian sediment which rendered the project unworkable anyway. The relocated Nubians were just one element of immediate national discontent. In the absence of legal political parties, union leaders and university students rallied to the underground communist party, which had been the only political party publicly to oppose the military coup. The Muslim Brotherhood, founded in Egypt in 1928, also developed a small but influential following in Sudan. As in Egypt, the Sudanese Brothers came to regard military rule as thoroughly un-Islamic.

Being practical, if economically illiterate, men, the ruling officers had the common sense to abandon the previous coalition's absurd pricing policy and the cotton mountain soon disappeared. They were also prepared to accept financial assistance from both East and West. Electricity for Khartoum and a railway from Kordofan to Wau, the first modern north-

south rail-line, brought economic advance. Wasteful spending on pet projects, poor accounting and graft soon tainted the military's can-do reputation, however.

In October 1961, General Abboud made a state visit to Washington, where he was warmly welcomed by President John F. Kennedy. The young Democrat president was effusive toward the military man who had overturned the embryonic democracy in Sudan. Kennedy talked of Abboud 'setting an example' to Sudan's immediate neighbours. He went even further by saying that Sudan 'set a standard for the continent'. US presidents would rarely praise leaders of future Sudanese juntas, but they did so occasionally when cold war competition demanded.

The military set up a system of regional and urban councils reporting to a central council in Khartoum, but it was mere window-dressing for the regime, not democracy. These modest reforms gave more power to rural conservatives at the expense of more secular urban opinion. The ruling military had done relatively little to improve politics in the north, but they had done *nothing* to resolve the 'Southern Problem'. As the army was the only relatively effective national institution, the Supreme Council assumed that the iron-fisted crackdown following the 1955 mutiny and the continuing Arabization would settle the matter. The broken promises of federation and continued discrimination exacerbated deep-rooted differences while repression merely pushed the resistance underground. Some of the surviving 1955 mutineers had gone into the bush, although their armed opposition amounted to little more than banditry. The military could have dealt with this in their traditional way. But then the ministry of education in Khartoum took over the missionary schools and integrated them into a national Islamic curriculum, in which Arabic was now taught alongside English. The surviving missionary teachers were harassed and then expelled. The secondary schools in Rumbek and Juba, where many of the southern elite had been educated, were closed after a strike against the draconian northern policy. Many students and teachers joined the thousands of fellow refugees in Uganda or Zaire. In 1963 the Sudan African National Union (SANU) was formed in Kampala. Small south Sudanese groups sprang up in London and Khartoum, but effective southern political resistance inside Sudan was sparse.

More promising for a southern fight-back was the establishment by the indigenous Latuka people of a small guerrilla base, Agu Camp, deep in eastern Equatoria; a few hundred men, led by Emedio Tafeng Odongi, a former lieutenant in the Equatorial Corps, started training. They conducted occasional raids on isolated government positions. Gradually, the resistance

set up other bases in the forests and bush along the borders with Uganda and Zaire (now the Democratic Republic of Congo). A small group of Latuka priests and teachers in exile in Kampala tried to forge a political leadership for the sporadic fighting inside Sudan. The leading light was Father Saturnino Lohure, who had represented Torit in the Constituent Assembly, but had fled to Uganda after the 1958 coup. They needed a political name. SANU was discredited, less a movement and more a reference to other prominent African groups such as the Rhodesian ZANU (Zimbabwe African National Union). Like ZANU and numerous other anti-colonial groups, south Sudanese dissidents suffered from tribal rivalries that spawned lots of small rival organizations. At first the southerners in Kampala played around with various titles with 'Pan African' or 'Azanian' included in their putative movements, in order to garner support from the Organization of African Unity and other potential financial and military sponsors. They settled eventually on a traditional African name, on the model of Mau Mau in Kenya. They agreed on *Anya-Nya*. This was a combination of the local word for the fatal poison extracted from a river snake and the name for army ants.

The first Anya-Nya raids in Equatoria were small-scale. The insurgency spread to Bahr al-Ghazal, however. In January 1964 Commander William Deng Nhial, a Dinka, sent one of his lieutenants to attack Wau, the provincial capital. Over a dozen government soldiers were killed and a stash of automatic weapons was captured. This was the first major attack of what southerners call 'The First War of Southern Independence'. By mid-1964 the insurgents numbered perhaps as many as 4,000, but they had no centralized command-and-control structure. Nor did they possess a unified political front. In mid-October 1964 various aspiring guerrilla leaders met in Kampala's Silver Spring Hotel. Walks-out and rows from the 'national convention' inevitably ensued. But one result was the emergence of Agrrey Jaden as a leader. He was a former civil servant from the Pojulu ethnic group who had previously presided over the ineffectual SANU. Theoretically, he headed only one political offshoot of the Anya-Nya, but he did appoint 'Colonel' Joseph Lagu as the first overall military commander of the armed resistance. Lagu, from Madiland, south of Juba, had defected from the government army in 1963. He was to play a prominent part in the southern war, not least encouraging the career of the most charismatic of all southern commanders, John Garang, who served (briefly) under Lagu in the first war, also called the 'Seventeen-Year War' (1955-72).

The racism of the north-south divide was ingrained. Northern Arabs

contemptuously referred to southerners as *abeed* (slaves), while the southerners often called Arab northerners *mundukuru* – slavers. So far, to Khartoum's generals, the southern rebels were not a military threat, but they were a political embarrassment. The military reluctantly allowed a debate by students at Khartoum University on the 'Southern Question'. It got out of hand, whereupon the authorities prohibited any more public discussion. Predictably, the students went ahead on 21 October 1964 with another debate, and a confrontation with police was ensured. A student was killed. At the funeral cortege tens of thousands of marchers, many wearing university gowns, started shouting anti-government slogans. Rioting ensued throughout the capital that the army and police struggled to contain. A general strike followed, while the banned political leaders looked on in amazement at a popular revolt in which they had played almost no part. The Supreme Council was split – the younger officers were more sympathetic to the popular discontent, while the older officers opted for tanks rather than talks.

Handing power back to civilian politicians

President Abboud, true to form, was reluctant to use force against his civilian compatriots. He had promised to return the country to civilian rule. On 26 October he announced the end of the Supreme Council and therefore the termination of military rule. The population of Khartoum erupted with joyous celebration in which the normally reserved capital witnessed men literally dancing in the streets. The 'October Revolution' entered Arab history as another bloodless intervention. In fact, scores of students and other demonstrators had already been killed by the police and army in the preceding week.

Abboud stepped down after handing over to a transitional government headed by a respected educationalist, Sirr al-Khatim Khalifa. Very few Khartoum leaders had real civilian experience of the south – the men in uniform knew only about keeping order. The new prime minister, however, had worked extensively in schools there. He included two southerners in his cabinet as well as a balanced mix of communists, Muslim Brothers and representatives of the other main political parties. Abboud quietly retired to civilian life with no legal repercussions for his coup. The day after he stepped down, he was cheered in the *souk* as he ambled around doing his own food shopping. His reluctance to use violence against civilians and his hand-over to politicians may well have owed something to his long service in and with the British army. He had learned from the British that politicians, not soldiers, should be in charge – no matter how little the military respected

the selfish, squabbling short-termism of their political masters. Abboud settled for a while in England, but died in Khartoum, aged 82, in 1983.

Abboud bequeathed a civilian cabinet that was even more dysfunctional than the previous one. During military rule conventional parties had disintegrated, but the communist party and the Brotherhood had helped to fill the political vacuum by careful underground organization. The communists were also active in the new cabinet; this upset the Islamists. In the new state council of the transitional government a chairman with a vital skill was appointed. Tijani al-Mahi was a medical doctor who was the first Sudanese to specialize in psychiatry. Yet even a highly qualified psychiatrist could not regulate effectively the often self-destructive and occasionally psychotic behaviour of the civilian political leaders. The Umma Party summoned tens of thousands of *Ansar* to chant Mahdist war cries in the streets of Khartoum. Thoroughly alarmed, the cabinet collapsed in February 1965 and the NUP, the Umma and the political front of the Brotherhood dominated the new one. For the next four years coalitions of old and new parties staggered on in a murky haze of sleaze, tribalism and remarkable incompetence. Like the Bourbons, the Sudanese parties seemed to have forgotten nothing and learned nothing.

The Southern Question continued to fester. On 6 December 1964 thousands of southerners in Khartoum had gathered to welcome back Clement Mboro. Universally referred to in the south as 'Uncle Clement' because of his genuine avuncular popularity, he had worked as a civil servant in the condominium in the south, and then became the first southerner to hold an important cabinet post in Khartoum. He had just been on a tour of the south, but rumours spread rapidly that he had been assassinated. Thousands of southerners went on the rampage killing any northern Arab they came across. Nearly a hundred northerners were killed in what was dubbed 'Black Sunday'. From that day on, at any sign of southern revolt in the city, Arabs in Khartoum would reach for their guns and patrol their neighbourhood, just in case the police and army were not up to the job. The army restored order in the evening of Black Sunday. Some northern intellectuals came to the conclusion that the south was irreconcilable and should be allowed to go its own way. The majority, however, either favoured more repression, immediately, or perhaps an olive branch, first.

A round table conference finally convened in Khartoum in March 1965. The southern representatives proved to be as fractious as their northern compatriots. SANU, for example, had two rival delegations called 'Inside' and 'Out', describing those in exile or operating inside the country. Two

ALF parties pitched up – the Azanian Liberation Front and Sudan African Liberation Front, demanding inevitably a comparison with the Monty Python version of the various Judean Liberation Fronts at the time of Christ. It would have been an amusing farce were not the consequences so tragic. Leaders such as Father Saturnino were there, as were the able Clement Mboro, who had *not* been killed on Black Sunday, but merely delayed. Mboro led the Southern Front comprised of educated southerners living in Khartoum. The government also included a group officially called 'Other Shades of Opinion', which most southerners regarded as stooges. For fifty years the northerners were always to deploy the Quisling tactic. The delegates were divided by class, education, ideology and, of course, tribe. One issue they openly disputed was whether the south should secede or create a federal system. More privately, some southerners analyzed the best means of armed struggle, should peace talks fail.

All the northern parties attended. In addition, delegates came from neighbouring African states. The northerners were able to manipulate the chronically disunited southerners. When all the northern party representatives predictably rejected southern independence, Aggrey Jaden flew off to Kampala in a fit of pique, thus removing his SANU-Outside from the game and allowing one of his main rivals, the Southern Front, to move up the pecking order.

The conference failed to reach any consensus. This was probably the last chance for peace, and for unity of Africa's largest country. True, a twelve-member committee, six from the north and six from the south, formed a working group to try to make a deal. It was chaired by a brilliant lawyer from the Muslim Brotherhood who would become the *éminence grise* of Sudanese Islamist politics after 1989: Dr Hassan al-Turabi. He was a ruthless and yet charming man who, intellectually, could run rings around nearly every other politician, north, south, east or west. And al-Turabi could accomplish this as easily in French or English as in Arabic. The lawyer was also an Islamic scholar who believed in the Islamization of the south, not its separation. As any proposal had to be agreed unanimously he used his veto to ensure the southerners did not get their way. Southerners wanted to ensure that the south remained one administrative unit, but northerners regarded this as a step towards independence. The northerners wanted to Balkanize the southern administration. The southerners also wanted a militia loyal to a local southern administration. Utterly frustrated, the southerners gave up eventually. Most concluded that the north would pay attention to their grievances only through armed struggle.

In the 1965 elections other fissures appeared in Sudan's body politic. The Beja Congress won ten seats. Formed in 1957, the Congress was set up to counter the alienation felt in the east of the country. They were committed to a federal system. Seven seats were also captured by independents in the Nuba Mountains. Both political groups represented the anger felt by marginalized peoples.

The premiership changed hands four times in as many years in almost Italian-style rotation. Initially, a clever, pompous politician, Mohamed Ahmed al-Majub, led the Umma-NUP coalition. Learning nothing from the recent southern attempt to negotiate a peaceful solution, the new prime minster intensified Abboud's policy of Arabization in the south. The army went into action against political dissidents among the small educated elite. In July 1965 a soldier and a local argued over a woman in Juba and in the ensuing fight the soldier was killed. On 8 July, officers in the Juba garrison gave the nod for their troops to rampage through the southern capital to exact revenge. Hundreds of southerners were killed and the town was trashed. Four days later troops from the Wau garrison went on a killing spree at a wedding party and murdered over seventy well-to-do southerners attending the celebration.

A new wave of fugitives fled into the cross-border refugee camps, but other angry southerners bolstered the number of fighting men in the scattered Anya-Nya camps, which had recently acquired weapons supplied by Simba rebels fleeing from the war in next-door Congo. Facing a new stage of armed resistance, the army opted for a tried-and-tested method of isolating insurgents from their rural support. The Sudanese set up 'peace villages', what the Americans called 'strategic hamlets' in Vietnam. The British had called them 'concentration camps' during the Boer War, and despite the furore had used them again in Malaya. It was a common method of draining the Maoist sea of peasant supply and support. The rural population of Equatoria was herded into thirty-three collective villages. Hundreds died from malnutrition and disease. This was an extreme counter-insurgency (COIN) technique, partly because Equatoria in the deep south was adjacent to neighbouring guerrilla sanctuaries in Uganda and the Congo. Along the north-south 'border' the army set up government-allied tribal militias to reinforce the centuries-old disputes over land, water and grazing rights. Sometimes tribes based in the north were encouraged to raid south, or Khartoum armed and bribed rival southern tribal leaders, a classic divide-and-rule principle. The policy of creating irregular tribal militias became a main pillar of northern COIN for the next five decades.

In the face of the new containment policy, the southern politicians still failed to co-ordinate properly. The 'boys in the bush' grew to disdain the talkers in comfortable capitals such as Kampala while they fought hard on the ground. At one stage, some commanders insisted on their troops using their local tongues and not English as the language of command and communication. English had long been seen as a symbol of resistance to the enforced use of Arabic. This move by some Anya-Nya commanders was a deliberate rebuff to the failed leaders in exile. In response, the first major rally, the 'national convention', was held *inside* the south, at Angundri, thirty miles south-west of Juba in July 1967. There, leaders such as Aggrey Jaden declared a 'Provisional Government of South Sudan'. This was the first real attempt to forge a united front of insurgents and politicians inside the country. Naturally, this new stage did not include all the fractious southern parties. The provisional government controlled only a small part of central Equatoria — when the army was not around. But it did publish newsletters to rally the faithful and later set up radio stations. The ad-hoc government collapsed when its president, the energetic but erratic Aggrey Jaden, suddenly decamped to the fleshpots of Nairobi. Once more a failure of leadership had scuppered the stuttering attempts at southern unity. Most insurgencies succeed when they are headed by one charismatic leader, but it would take decades for that kind of leadership to emerge among southerners. Agrrey had been frustrated by the clashes of the Equatorians who resented the aggressive intrusion of the most populous and warlike tribe, the Dinka. Tribalism, army reprisals, and sheer logistical challenges had destroyed the embryonic government almost as much as poor leadership.

Back in Khartoum, the southern political remnants of the Round Table Conference were still around, despite the intermittent legal harassment. The most important, Clement Mboro's Southern Front and William Deng's SANU-Inside, squabbled as much as co-operated. At least they got to talk to northern politicians. This played a role in the compromise deal that was finally reached in 1972. Meanwhile, the armed wing continued to fight on, while pleading with the leaders to get their act together. These same leaders could not even agree on what to call their future independent state. Many thought of 'South Sudan' as an imperial legacy and a mere geographical construct. In March 1969 the 'Nile Provisional Government' was set up, at least in name. It was led by Gordon Muortat Mayen Muborjok, who had served as a middle-ranking police officer and who later defected to the rebels. He was one of the few early nationalists who actually reached the promised land by serving in the federal post-2005 government.

It was under Muborjok's leadership that the Israelis were brought into the fray; a handful of Anya-Nya went to Israel for training and occasionally Israeli advisors entered the deep south. Mossad was always looking for peripheral wars to distract Arab foes. The war in Yemen, for example, had engaged 70,000 of Egypt's best troops during crucial stages of the Arab-Israeli conflict. A handful of advisers, as in south Sudan, could set up a lot of distractions for real or potential Arab enemies.

The failure of leadership continued to afflict the north as much as the south. In July 1966 Sadiq al-Mahdi became prime minster and it seemed to many urban secular intellectuals and religious conservatives alike that cometh the hour, cometh the man. He was young (31), the great-grandson of the Mahdi, an author, an imam to the *Ansar* and an Oxford graduate. Moreover, he was decisive, and appeared to have a national vision which transcended all the debilitating prejudices. He transformed the Umma Party from a religious relic into a modern political machine; encouragingly, he appointed younger ministers based on competence and not merely to balance the party or tribal ticket. Even some southern leaders found grounds for optimism in the al-Mahdi coalition. He wanted to ditch the ramshackle transitional constitution that followed the end of military rule. In trying to balance an Islamic with a secular orientation for a new constitution, the Umma split, however. Despite all the promise, al-Mahdi's government fell after ten months. A new makeshift coalition, led again by Mohamed Ahmed al-Majub, soon became mired in familiar tribal and sectarian passions. Rumours spread of another military coup.

Sadiq al-Mahdi had opposed the first round of military intervention in 1958. It was an interesting historical counterpoint that a young officer, Omar al-Bashir, graduated from the Khartoum Military Academy in December 1966, during the apex of al-Mahdi's brief but meteoric rise to power. In later years I spoke to both leaders at length. Al-Mahdi still impressed with his intellectual debate in almost perfect English; his physical height, demeanour and sculpted beard echoed the age of great Arab conquerors. Yet he became a spent force, the early political promise sullied by his own indecision and the sheer intractability of Sudan's many problems. The soldier who toppled him, Omar al-Bashir, was obviously the more practical man, a pragmatic officer and populist who could reach out beyond the religious elites to touch the common man — albeit only in the north. Both men were two key antagonists in the 1989 culmination of the yo-yo years of military and civilian rule.

That tipping point was still to come, however. In May 1967 the

ineffectual Mohamed Ahmed al-Majub returned as prime minister, backed by an Umma faction that had deserted Sadiq al-Madhi in favour of an imam who was a relative of the Mahdi's successor, Khalifa Abdullahi. That original succession battle had been fought over eighty years before, a classic example of Sudanese leaders' absorption in bygone struggles. Party politics was dominated by the Umma (and its various wings) and the Democratic Unionist Party (DUP); both were anachronistic feudal movements. Al-Mahdi's influence stemmed from his relationship with the original Mahdist *Ansar* revolt, and much of the party's power base had been in the west. It had become an exclusive family concern, based on hereditary principles. Likewise, the DUP was based on the *Khatmiyyah* sect run by the Mirghani family, whose influence was largely in the east. These two political dynasties and their religious allies took centre stage, while the communists and Brotherhood were usually pushed into the wings.

The prime minister's arrogance propelled him to ignore domestic politics as almost beneath him. Al-Majub had received previous accolades as a foreign minister. He preferred to indulge his taste for international meddling. Some of it was justified: such as countering the communist Derg government in Addis Ababa that was arming the Anya-Nya. Intercession in Eritrea, Chad, the Central African Republic and the Congo seemed less pressing. In the last case, Khartoum's arming of rebels in the Congo could have disturbed one of the Anya-Nya's southern sanctuaries. In later years supporting rebels, such as the Lord's Resistance Army in Uganda, became a convenient counterweight for Khartoum's floundering southern strategy. In the longer term, Khartoum's cross-border stirring undermined its complaints about its neighbours intervening within Sudan's borders. And al-Majub helped to set this trend.

If Khartoum was perhaps overactive in foreign intervention, its handling of economic issues was underwhelming. Benign neglect allowed the traditional tribal and family domination of the riverine trade to flourish. But Sudan needed big foreign investment, not least to satisfy the demands of the marginalized peoples in the east and west. Slow economic growth, political instability and a civil war did not encourage much foreign investment. What plans there were depended on nationalizing private cotton schemes that further deterred foreign money. An antiquated and grossly unfair taxation structure plus reckless borrowing increased the national debt by a factor of ten in the four years of ham-fisted civilian governance.

The events of 25 May 1969 appeared inevitable to all except the members of the Constituent Assembly who were totally engrossed in mutual backstabbing. Colonel Ja'afar Numeiri and his movement of Free Officers

ordered the army to seize key installations in the three towns of the capital. The coup was led by a handful of officers and around 500 men, some mere cadets – although two companies of tough paratroopers also took part. Just as in Brigadier Omar al-Bashir's future coup of 1989, the plotters in 1969 fell out about the timing and so only a few of Numeiri's dedicated followers pressed ahead. Under cover of darkness one armoured column seized the main bridges and the broadcasting centre. Another column took over army headquarters and arrested senior commanders and later senior politicians. It was done efficiently and without shedding any blood. Numeiri's peaceful revolution was consciously modelled on the 1952 Egyptian putsch by the Committee of Free Officers, which proclaimed secular Arab socialism. Nobody, not even the religious conservatives, appeared to mourn the abrupt termination of the second round of civilian rule in Sudan.

Visitors to Sudan always comment on the hospitality and warmth of northerners. Sadiq al-Mahdi, once one of the more promising leaders, was an utterly urbane host as was Hassan al-Turabi, another merging leader. I speak personally as a house guest of both these men (and many other Sudanese politicians). Yet until the late sixties no single leader had been able to climb out of the swamp of selfish nepotistic greed or, when a few did, they did not espouse a vision for the whole country. The Sudanese had looked at the 'big men' in Arab politics, such as Nasser, and wondered whether they could do better. Nasser had been humbled by his crushing defeat by the Israelis in the 1967 Six Day War. Ever-optimistic, the elite in Khartoum now hoped that Numeiri, a political soldier unlike the affable and apolitical Abboud, could lead from the front and, above all, end the north-south conflict. Would the so-called May Revolution in 1969 finally deliver on all the aspirations of independence?

The Numeiri years

Numeiri had been a political activist his whole life. He had been expelled from school for organizing a strike against British rule, and later kicked out of the army for his left-wing politics, but was mysteriously accepted back into the officer corps. After a course at the US Army Command and Staff College at Fort Leavenworth, he was appointed to run an army training school, a useful position to groom young cadets in the ideals of his Free Officers' Movement. The son of a postman, albeit with aristocratic forbears in Dongola, he modelled his revolution closely on that of Nasser.

Judith Miller, of the *New York Times*, interviewed him a number of times. She did not appear impressed:

> Flabby, black-skinned and tainted in the eyes of many of his racist northern countrymen by his facial scars – inflicted by tribal healers to protect children against the Nile's innumerable eye diseases – he was a poor orator.[1]

He was clever, energetic and ruthless, however. His small band of military acolytes was determined to reshape the social and economic order in a new socialist state that would be avowedly secular. And, like Nasser, Numeiri believed in pan-Arabism. The Revolutionary Command Council would need its sometimes reluctant allies in the Sudan Communist Party to achieve its goal, not least to wipe out the main religious opponents, the Islamists, especially the *Ansar*. After the *Ansar* had staged mass protests in Omdurman, in March 1970 the Free Officers decided to act against the fortified heart of old-fashioned Mahdism. A large flotilla was sent up the White Nile to attack the well-defended Aba Island. Crack army troops killed thousands of *Ansar* after stiff resistance. The land and properties of all the extended Mahdi's family were confiscated and the urbane Sadiq al-Mahdi had to smuggle himself out of the country for a lengthy exile.

Khartoum's radical socialist army government then proceeded to nationalize nearly all the private commercial sector, including large and successful Sudanese-owned companies and banks. Compensation was meagre. Workers were awarded more rights, however, and debt and rent relief was given to the vast army of tenants in the Gezira cotton scheme. School numbers were boosted. Nevertheless, as with nearly all the economic programmes of state socialism, the five-year plans failed. A radical foreign policy accompanied domestic socialist reforms. Loans were sought from the Soviet bloc and Numeiri toured Eastern Europe, China and North Korea, as well as engaging in pan-Arab affairs. Numeiri shifted from the West, especially Britain and the USA, most notably in arms purchases. New Soviet technicians came into Sudan to assist with the expansion of the army from 18,000 to 50,000 men, with an arsenal of Soviet tanks, artillery and aircraft. Egypt also supplied equipment including armoured personnel carriers.

Elements of the communist party had long been wary of the military government, not least because they had wanted to create a large popular revolution of peasants and workers, not one based on a putsch by a small band of *petit-bourgeois* officers. They had also disliked Numeiri's flirtation with Libya and Egypt in the Tripoli Charter, which set up another pan-Arab experiment, the Federation of Arab Republics. Moreover, the ailing Nasser and the erratic Libyan firebrand, Colonel Gaddafi, had eviscerated their

communist parties. Numeiri initially purged some of the main pro-communist officers in the Revolutionary Command Council. Believing he was popular with the people, the president had by now alienated all the political parties and movements in the country and his military intelligence thwarted at least ten planned or actual attempts to overthrow him in the first two years of his rule. On 19 July 1971 surviving pro-communist officers, to avoid imminent arrest, staged a hasty coup in Khartoum in broad daylight. Sudanese communist party leaders were on a visit to London and many surviving pro-communist officers had been caught unawares.

So was Numeiri, who was captured. Communist prisoners in the city were freed and encouraged to stage a protest throughout Khartoum, waving red flags and shouting revolutionary slogans. National radio announced even more sweeping agricultural and commercial nationalization. The instinctive conservatism of the Sudanese population, especially in the three towns, was alienated. The Northern Defence Corps based in Shendi remained loyal and moved on the capital, while a tank unit freed Numeiri, after a fierce fire-fight. Egypt's new president, Anwar Sadat, also intervened. Egyptian army units guarding dam installations were ordered into Khartoum and the Egyptian air force helped to fly in loyal Sudanese troops. The hasty communist coup lasted just three days before it was crushed. The main plotters were tried in secret and promptly hanged, including those who had fled to Libya (and quickly returned). Thousands of communists were arrested and detained in a comprehensive crackdown.

The rapid slaughter of the *Ansar* and then the communists may have secured Numeiri's shaky throne, but his blood-soaked reprisals and secret trials and executions offended the Sudanese belief and pride in the civility of their political life. Everybody might squabble and even tolerate coups, but bloodshed among Muslims was generally viewed as *haram*. The attempted communist coup shook Numeiri's confidence and he moved away from his left-wing socialist stance. A few communists were absorbed into Numeiri's new Sudan Socialist Union, but the power of the communist party was broken for ever, though it survived for a long time as a rump. Numeiri's movement was the only legal party in the country, and the press was also strictly controlled. Just to make sure he was genuinely popular, in August 1971 a rigged poll allowed Numeiri to be president, for another six years.

The southern front under Numeiri

That was a temporary band-aid for northern troubles, but what of the civil war in the south? The communist party had argued for a deal allowing

southern autonomy, but the freshly purged and enlarged officer corps wanted even more arms and troops to crush what they still regarded as a 'mutiny', albeit a rather long and extensive one. Nevertheless, a political deal was back on the table. Numeiri had to shore up his options.

In the south, Aggrey Jaden was still trying to achieve the apparently impossible – a political command for the Anya-Nya. The capable Joseph Lagu had been demoted from commander in chief and so refused to operate with the titular commander in chief, the long-serving but illiterate and incompetent Emidio Odongi – that at least was Lagu's view. The fighting commanders still regarded the political leadership as inefficient and often cowardly fat-cats. After the Six Day War Lagu offered to open a unified southern military front for the Israelis. Lagu even made a secret visit to Israel where a more fully supportive Mossad decided to provide extra money and weapons. Israel also decided to drop the pretence of supporting the Southern Sudan Provisional Government to focus on Lagu's determination to unite the southern fighting forces, without pandering to the hapless politicians.

Lagu certainly appeared brighter and more experienced than Odongi. And coming from the small Madi ethnic group, he had soon mastered the main southern languages as well as Arabic and English. After attending perhaps the best secondary school in the South, at Rumbek, he was one of only two southerners to attend the Sudan Military College, where he was commissioned as a lieutenant in 1960. He defected from the Sudanese army and by 1963 was leading the Anya-Nya, where he developed an equal contempt for southern politicians as well as internecine tribal warfare. The Israeli connection, allied to his military skills, finally enabled Lagu to dominate southern military resistance.

Israeli military training and regular air drops of weapons were important to the Anya-Nya, but so was Mossad's adroit diplomacy. Emperor Haile Selassie was easily persuaded to allow a southern training camp to operate on his territory, not least to move forces across the north into the Upper Nile. Khartoum and other Arab capitals had been supporting the Eritrean insurgency in Ethiopia's far north. Israeli support for the Anya-Nya also came via Uganda. From January 1971 small groups of southerners began training, most notably in military communications, in Israel. At the same time Lagu renamed his (relatively) more united forces as the Southern Sudan Liberation Movement. Lagu also gave up on the original political demands to create an integrated army. Logistically it made sense to allow ethnic armies in the various southern states, with a theoretical command centre. This was later to exacerbate tribal divisions.

By 1970 better training, organization, weapons and communications moved the civil war into a more aggressive phase. Major roads were mined leaving the key towns in government hands, but often dangerously isolated. Even Juba, the southern capital, was shelled by artillery. The Sudanese were hard pressed to supply by air, despite the influx of Soviet advisers and new fighter and transport planes and helicopters. Soviet armour was sometimes met by successful use of Israeli anti-tank weapons. In order to regain some control of the Equatorian hinterland of Juba, Egyptian commandos supported the Sudanese army.

The southern rebels now fought better, but it depended partly on the varying quality of commanders' leadership as well as the different terrain. The rugged landscape of forest and hills of Equatoria was ideal for guerrilla warfare, especially during the rainy season, but in the dry season along the border with northern Sudan, the grassland, scrub and desert were easier to patrol and harass from the air or along the Nile and other minor rivers. The Nuer Anya-Nya, with supplies from Ethiopia, began to hit armoured columns and seize large amounts of arms from the government. They also hit columns trying to break the on-off siege of Wau, as well as destroying the railway to the town. Military intelligence in the north put full-time southern fighters at around 13,000, more than double five years previously. The insurgents were much better armed and trained, thanks mainly to foreign support. Some senior army officers in Khartoum, who had been conducting the fighting in the south, felt that their COIN had reached a stalemate. Perhaps a political approach might finally work, at least temporarily, to allow the northern army to regroup.

The first peace deal

With Haile Selassie's blessing, northern and southern leaders as well as church intermediaries met in early February at the Hilton Hotel in Addis Ababa. Preliminary meetings had taken place discreetly for months beforehand. The north ordered a unilateral ceasefire, while the SSLM still wanted outright secession. In later years southern mythology portrayed the Addis talks as a sell-out, but this failed to understand African circumstances at the time. The Ethiopian government was fighting secessionist movements, not least in Eritrea, and the founding shibboleth of the OAU, after the terrible civil wars in the Congo and Nigeria, was to maintain unity – the traditional colonial boundaries – at all costs. Numeiri carefully selected military officers who were prepared to compromise, while Major General Lagu was also determined to reach a deal. Before tackling the main

constitutional issues, they agreed on English as the principal language of the south. The borders were to be maintained as of 1 January 1956, the line inherited from the imperial power, and the south would keep its administrative unity. A southern regional assembly would administer, *inter alia*, education, public health and the police, but the national government in Khartoum would control defence, foreign affairs and the currency. Juba would be the site of the regional government.

But the sticking point remained the army. The southern delegation wanted a separate army run by southern officers; the north believed this was the first step to independence. After days of deadlock, the emperor, as host, suggested a compromise. A Southern Command of 12,000 officers and men – half of whom would be southerners – would be set up. The deal was finally signed on 27 February 1972.

Numeiri declared a great victory, made the temporary ceasefire permanent and toured the south, where he was warmly received. So great was the relief at the end of seventeen years of fighting, with hundreds of thousands displaced and thousands killed, that Lagu's concerns that the 6,000 southern troops would all be Anya-Nya were glossed over. The deal could work, but it all relied on goodwill and trust. Despite the lack of trust, some goodwill persisted and the agreement held for eleven years.

Northerners proclaimed Numeiri as the great peacemaker, and rumours spread that he would soon earn the Nobel Peace Prize. Lagu went north and was made a major general in the Sudanese army, but not vice president as he had expected (a mistake which was carefully avoided in the 2005 agreement). The new government in Juba was dominated by mission-educated local Equatorians, while a number of returning educated exiles were generally disappointed, as were the far more populous Nuer and Dinka of Bahr al-Ghazal and Upper Nile. Tens of thousands of refugees had to be repatriated from across the southern borders, while an even larger number of internally displaced persons (IDPs) from north and south had to be re-homed. Led by the United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR), a host of religious and humanitarian NGOs set about the task of repatriation and resettlement. Many of them would be still be there more than four decades later, as the NGOs emerged as a kind of imperial rearguard, covering the Western retreat from Africa.

Progress was soon made with the formation of a more representative police force, but Khartoum could not shake off the legacy of the northern-centric army as the most – perhaps only – effective national instrument. As the maker, breaker and broker of power in Khartoum, how could it be

diluted by southerners who might use it to undermine the country's fragile unity? This was the perennial question in the north. And the traditional divisions remained: most of the rank and file of the northern-dominated army were from peripheral areas, mainly the west, while the officer class came from the traditionally powerful riverine elite. Ironically, many officers were prepared to accept secession rather than dilute their beloved national army. The army's power could be destroyed in the north as well as the south, or so some officers feared. After seventeen years of fighting and propaganda, some officers just could not tolerate 'slaves' and 'terrorists' in their army and so resigned. Southerners feared that the Southern Command would soon push out experienced insurgents or otherwise suffer discrimination from the larger and more sophisticated northern army. Perhaps a few southern idealists saw the new dispensation as the chance to create a proper non-tribal southern force. And an even smaller group might even have hoped that a unified democratic Sudan could emerge — eventually.

If the police and prisons were indigenized quite quickly, the army integration was scheduled to last five years. Just over 6,000 insurgents, proportionately from each province, were integrated and retrained. A few were sent abroad, for example, the promising Captain John Garang de Mabior, destined to command the whole southern army, was sent to the USA for advanced instruction. Over half the former fighters were deployed in public works on farms, road and forestry, although the job-creation schemes soon petered out because of lack of funds. Inevitably some frustrated warriors grew unhappy. In late 1974 and early 1975 mutinies erupted primarily in Juba and Wau in attempts to restart the war. But the new regional president, Abel Alier, intervened. Alier was a respected human rights lawyer and judge, a Dinka Bor Christian whom Numeiri made vice president of Sudan. More often the local crises required the authority of Major General Lagu to bring the dissidents into line.

Temporary peace

Surprisingly, the north-south peace deal held for eleven years. After elections in 1973, the regional assembly in Juba stumbled along, despite the ethnic and personal fissures, and the fact that Khartoum still made unwelcome top-down decisions. They also argued about the controversial Jonglei Canal project. At least it proved the northerners wrong – that southerners could make a reasonable stab at a functioning democracy, one far removed from the northern dictatorship. There, the Numeiri government